رسالة إلى نجمتي

الطبعة الأولى
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

اسم العمل : رسالة إلى نجمتي
اسم المؤلف: د. عبدالرحمن ناصر
التدقيق اللغوي: منى حلمي
تصميم الغلاف: يوسف السيد
الإخراج الداخلي: عمر أسامة
رقم الإيداع: ٢٧١٩٥ / ٢٠٢٤
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٩٩٩-٨٣-٩

مسار للنشر و التوزيع
شارع ونس - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية - مصر
01020439639
massar.pub1@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، ورقيًا أو إلكترونيًا، سواء بشكل كامل أو جزئي أو عرضه مجانًا عبر أي وسيلة وبأي شكل من الأشكال من دون الحصول على تصريح خطي من دار مسار للنشر.

رسالة إلى نجمتي

د. عبدالرحمن ناصر

مَسَار
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى.. كل من آمن أن كلماتي سترى النور يومًا.

المقدمة

لا نعلم ما يخبيه القدر لنا، في يوم وليلة قد يتغير حالنا دون سابق إنذار، وكذلك قلبنا لا نتحكم به، فهو في تقلب دائم، لا تستطيع أن تجبره على كره أحد أو أن يحب أحد، تلك المُضغة يصعُب التحكم بها، فلا نقول لقلبنا أن يحب أحدًا أو أن يكره أحدًا، بل تكون هذه المشاعر ناتجة من أفعال من تتعامل معه، ولكن في بعض الأحيان ينشأ قبول يتحول إلي مشاعر الحب في اللقاء الأول من أول نظرة لأشخاص لم نتعامل معهم من قبل، فقط تجد أن روحك تنجذب لهم تلقائيًا، وكأنك تعرفهم منذ زمن بعيد، وكأن روحكما قد تقابلا في زمن وبُعد آخر، فتقع في حب ملامحهم وكل تفاصيلهم، وتجد نفسك دون أن تشعر تبحث عنهم في وجوه من حولك، وتشعر بغصَّة عندما لا تراهم لفترة طويلة، ثم يأسرك الشوق وتكون ضحية العشق.

ولكن قد يكون البُعد نصيبك من الحب، فتشقى في حياتك، وتلعن قلبك الذي تحرك في جوفه، وتتحول حياتك إلى جحيم.

نسأل الله أن يحفظ كل من نحب ويجمعنا بهم .

مشاعر مدفونة

١

سنوات ضوئية تحول بين لقائنا، فما أنا ببالِغِك ولا أنتِ تدركيني، ولكن تبلغكِ كلماتي ومسامرتكِ تؤنسني.

***

(حمزة)

في إحدى البيوت بمدينة مانشستر ترعرع حمزة في عائلة متحفظة قليلًا، متمسكة بمبادئ دينها، ذلك الفتى الذي ظهرت عليه علامات النبوغ منذ أن كان صغيرًا، فقد كان يهتم بدراسته، وكان شغوفًا، بالقراءة ومولعًا بالمعرفة، واكتشاف كل ما هو جديد، فكان مشهورًا بين أقرانه وأصدقائه بمعرفته الواسعة في أمورٍ شتى، كما لم تلفت انتباهه أي فتاة على مدار عشرين عامًا، ولكنه كان متخذًا إحدى نجومِ السماء مؤنسة له.

كان يخاطبها كل ليلة وكأنها تلك الفتاة التي يحبها، كان يراها مميزة عن باقي النجوم، لها بريقها الخاص، يشعر بقربها وكأنها تواسيه، يخاطبها وترد عليه.

كان حمزة مهتمًّا باللغة العربية، وخاصة البلاغة، وكان يتعجب من بلاغة وفصاحة أهل شبه الجزيرة العربية، فكان أحيانًا يكتب لنجمته وكأنها تسمعه.

بينما هو في حديثه مع نجمته إذا بهاتفه يصدر صوتًا أن هناك من يتصل به، فيجيب:-

- مرحبًا يا مايك، كيف حالك؟

- بخير يا صديقي، وأنتَ كيف حالك؟ .. لقد مررت بمنزلك ولكني لم أجدك.

- بأفضل حال، نعم، لقد خرجت قليلًا، أردت مكانًا هادئًا؛ لأتأمل السماء، وأريح أعصابي قليلًا.

- حتى وأنتَ لديك امتحان نهاية العام في اليوم التالي تذهب لتأمل السماء، وبالطبع قمت بمحادثة نجمتك، فهكذا عهدتك، أتمنى لو كان عندي مثل أعصابك الهادئة تلك.

- لقد ولدت هكذا، ولا أعتقد أن اكتسابها بالأمر السهل. (يقولها وهو يضحك).

- حسنًا يا هادئ الأعصاب، أردت أن أخبرك أن غدًا سيجتمع زملاؤنا للاحتفال بنهاية عامنا الثاني بالجامعة إذا أردت القدوم، أم أنك ستمتنع كالعادة؟...

- حسنًا، سأرى خططي، بالغد وإن استطعت سآتي.

حمزة ليس بالشخص المنغلق والمنطوي على ذاته كليًّا، ولكنه ليس أيضًا بالشخص المنفتح والاجتماعي، لهذا لا يحظى بالأصدقاء، وكل من يعرفهم تكون علاقته بهم سطحية، لهذا قد لا يلاحظ أحد وجوده في أي تجمع، كما أن له عقلية فريدة من نوعها لا تماثلها أخرى، لهذا يصعب عليه التقرب من أحد لعدم وجود التناغم والتفاهم بينه وبين الأخرين.

أكمل تأمله للسماء ومحادثته لنجمته لبعض الوقت، فقد كان الجو هادئًا، ونسيم الهواء الذي يلفح وجهه يشعره بالراحة والصفاء، ثم انصرف عائدًا للمنزل، فلديه بالغد موعد مع امتحان؛ لينهي عامه الثاني بالجامعة.

عاد للمنزل و ذهب للنوم، ولكن عقله قد باغته بسؤال مفاجئ: (إن كانت نجمته التي يحادثها كل ليلة ويكتب لها فتاة حقيقية كيف ستبدو؟ وهل ستكون بنفس الروعة التي يراها في تلك النجمة أم كل ذلك مجرد خيال بداخل عقله؟.. فكيف لذلك القلب الذي تغلف بالجليد للعديد من السنين أن يذوب في دفء الحب؟!).

سؤال يراوده لأول مرة، ولكنه يريد معرفة إجابته بشدة، ومن حينها أصبح نصفه الآخر يشغل باله، كيف تكون هيأتها؟.. أعينها؟.. أفكارها؟.. طريقة حبها...؟!

في اليوم التالي جلس مع زملائه يتحدثون عن الاختبار وعن خططهم لتمضية العطلة

الصيفية، ثم رحل عائدًا للمنزل، عندما دخل المنزل ألقى التحية، ولكنه شعر بشيء غريب يحدث في المنزل، وأن هناك حركة غير طبيعية، وعندما سأل ماذا هناك أخبره والده (سالم) أنهم يجهزون أغراضهم للذهاب إلى مصر؛ لأن جِدَّه تعب وعليهم الذهاب لرؤيته.

جاء إلى ذهن حمزة بعض الذكريات المشوهة؛ لأنه لا يذهب كثيرًا إلى مصر موطنه الأم، دائمًا ما كان يظل في بريطانيا عند ذهاب الأسرة للزيارات في مصر منذ أن كان في العاشرة من عمره، وقد كانت آخر زيارة له عندما كان في التاسعة من عمره عندما ذهب لقضاء أيام العيد الأضحى هناك مع باقي أفراد العائلة، ولكنه قرر هذه المرة بأن يذهب لكي يزور جده المريض كما أنه لا يملك خططًا لهذه العطلة.

كانت الطائرة تحلق ليلًا، وكان حمزة يجلس بجوار النافذة فألقى النظر خارجًا، فرأى نجمته، فتبسَّم وحمل مسودته وكتب:

(يصل لي نورك، ومهما مدتُّ يدي لا أتملكك، أرجو السماء بأن تدنو لعلِّي من تقربها أجاورك، قلبٌ مكلومٌ من البُعدِ، وروحٌ تحترق اشتياقًا، ويبقى وصالك أفضل ترياقًا).

كان الطريق طويلًا قليلًا، وقد قضى الكثير منه نائمًا لكي لا يشعر بالوقت، وخلال نومه رأى شيئًا غريبًا، رأى بأنه قد دنى من نجمته، وكان قاب قوسين أو أدنى من أن يلمسها ويشعر بها، كان بريقها يتلألأ في عينيه، وينجذب لها كأنه قد سُحر بها.

وصلت الأسرة للإسكندرية بخير، وذهبت إلى منزل الجد، وخلال رحلتهم في المدينة حتى وصولهم البيت كان حمزة يتأمل الأماكن التي يمر عليها، ويشعر بشيء دافئ يلامس قلبه، كان المكان له طابعًا مختلفًا عما اعتاد عليه في غربته، يشعر وكأن البيوت تتحدث عن ما عانته خلال سنوات عمرها حتى شابت، والطرقات تحمل من الحكايات ما وضع في التاريخ وما لم يُذكر، أما أهل تلك البلاد فسيجعلونك تشعر وكأنك ولدت ببيتهم، ظل حمزة شاردًا طيلة الطريق حتى وصلوا أخيرًا إلى وجهتهم، كان بيتًا قديمًا تملكه العائلة منذ أعوام كثيرة يتوارثه جيل خلف جيل، كان ذا طراز كلاسيكي، يُغَلف محيط البيت

بحديقة مزينة ببعض الأزهار الجميلة، وهناك سور عالٍ يفصلهما عن باقي العالم، كانت العائلة بأجمعها في البيت لمجاورة الجد، والذي يُعد الدعامة الأساسية والعمود الفقري لهذه العائلة؛ كان الترحيب بحمزة فريدًا و مختلفًا من طرف أفراد العائلة، حيث أنه لم يأتِ منذ ما يقارب عشرة سنوات، وقد تغيرت ملامحه، ولم يعد ذلك الطفل الصغير الذي زارهم آخر مرة، بينما كانت أخته الكبري (خديجة) وأخيه الأصغر (عمر) يأتيان دائمًا مع والديهما، فكان الترحاب بهما عاديًّا.

قضى حمزة يومًا حافلًا مع العائلة، وفي اليوم التالي بعد انتهاء العائلة من الإفطار كانت تنتظره رحلة صغيرة في مدينة عروس البحر الأبيض المتوسط قد أعدت لها أخته، كان حمزة ذا ذوق مختلف قليلًا لا شيء يثير اهتمامه بسهولة، ولكن أخته كانت تعلم ما هو أكثر شيء يحبه وكانت تستدرجه بهذا الشيء، ففي النهاية لكل منا نقاط ضعف وأشياء يحبها.

– ما رأيك يا حمزة بأن نذهب في رحلة صغيرة حول المدينة.

– لا أريد الذهاب، ولا أعتقد أن هناك أي شيء مثير هنا على أي حال.

– حسنًا، ولكنك لن تخسر شيء إن قدمت معي، فأنا أريد الخروج للتجول قليلًا، ولا أريد الذهاب بمفردي.

– يمكنكِ أن تأخذي عمر معكِ.

– ما رأيك بأن تأتي وسأكافئك بأكثر شيء تحبه.

– ما هو ذلك الشيء؟

– تعالى معي وسترى بنفسك.

وافق حمزة في النهاية على الذهاب مع أخته؛ لأنه رأى أن العرض مغري كفاية كما أنه لم يكن سيفعل أي شيء مهم خلال يومه، وليرى ما الذي كانت تقصده أخته.

ذهبا أولًا إلى قلعة (قايتباي)، أعجب حمزة بروعة البناء وجمال التصميم، وكيف يحيط بها الماء من ثلاثة اتجاهات، كان كل ما يملكه عنها هو بعض الصور لها، ولكنها أكثر جمالًا على الحقيقة، التقطا بعض الصور للذكرى، ثم ذهبا لشرب القهوة بمكان يطل على البحر.

بالنسبة إلى حمزة فإنه يشعر بالراحة عندما يكون بجوار البحر ويتأمله، لذلك لم يشعر بالملل، وكأنه يستمد قوته وهدوءه من البحر كأنه جزء منه، يعلم ما بداخله، فيلقي به ما يزعجه، فيجد البحر يؤنسه في هدوء حتى إذا هاجت أمواجه كانت له إيقاعًا جميلًا ومنظرًا يسحر العينين.

ثم ذهبا للتسوق قليلًا وشراء بعض التذكارات من أحد الشوارع المشهورة والمكتظة بالملابس والتذكارات، فرأت خديجة أنه بدأ يشعر بالملل، فأخبرته أنه وقت مكافأته قد حان، فتلهف ليعرف ما هي مكافأته.

سألها: ما هي المكافأة؟، فقالت له: ستعرف قريبًا، حتى وصلا إلى وجهتهما، فوقف حمزة مذهولًا!، فهو يعرف هذا المكان، لطالما أراد القدوم إليه.

إن مكتبة الإسكندرية من أشهر المكتبات بالعالم، فقد حَوَت العديد من الكتب التاريخية والعلمية في جميع المجالات على مر العصور. دخلا، فذهب حمزة يتفحص الأرفف، هو لا يريد شيئًا معينًا، ولكنه يرى ما تملكه المكتبة من عنوانين، يتحسس الأرفف المرصوصة أمامه صفًا تلو الآخر، والمكتظة بجميع أنواع الكتب، يستنشق عبق الكتب ويملأ صدره به، يمتع عينيه بذلك المكان المهيب، والذي يحوي كنزًا لا يقدر بثمن، ثم استعار كتابًا بدا عنوانه مثيرًا له، خرجا من المكتبة والسعادة على وجه حمزة، فأخبرته خديجة أن المكافأة لم تنتهِ بعد، ثم ذهبا إلى شارع يسمى (النبي دانيال)، تملؤه الكتب يمينًا ويسارًا عن بكرة أبيه، توضع الكتب على الأرصفة وجوانب الطريق، ولا يجرؤ أحد على سرقة شيء، فتلك المعرفة لا تسرق هكذا.

غمرت حمزة السعادة، فهو يعشق الكتب، انتهى به المطاف آخر الأمر أنه اشترى كتابًا

لمحمود درويش وكتابًا آخر تعجب من اسمه يسمي: (إيكادولي)، وهذا الكتاب عبارة عن رواية للكاتبة (حنان لاشين)، ثم عادا إلى البيت.

انتهى اليوم الطويل وجاء الليل، فخرج حمزة للجلوس بالحديقة؛ ليتأمل السماء كعادته ويُحدِّث نجمته، ولكن هذه المرة أخذ الرواية معه؛ لتكون رفيقًا جديدًا لهم، كان يمسك الكتاب ويقلب صفحاته سريعًا وينظر له في صمت، كان عنوان الكتاب غريبًا بالنسبة له، فهو لم يكن يعلم معنى تلك الكلمة حتى بحث عن معناها، فشد ذلك انتباهه، وأصبح شغوفًا بأن يقرأ ذلك الكتاب، وكان يحدث نفسه:

) يا ترى ما الذي يحمله هذا الكتاب من أسرار وأفكار جديدة)؟

وما أن رأى نجمته وتأملها حتى حمل مسودته ليخاطبها:

(وإن كان الشوق نهارًا يغلبني، فما ينفك الكون من ارتداء ثوب الليل حتى تكوني سلوتي).

قصَّ لنجمته كل ما حدث خلال يومه ثم استهل قراءة الرواية.

٢

دائمًا ما نتيه في أفكارنا قبل أن نذهب للنوم ويغفى لنا جفن، وكأن العقل أخذ أمرًا صارمًا بألَّا يدعنا نذهب لعالم الأحلام بسهولة، ولكن هناك سؤالًا يتكرر دائمًا في كل الأوقات للعديد من الأشخاص، هل سيأتي اليوم الذي أقابل فيه حب حياتي؟...

هل سيأتي يومًا لأعيش فيه قصة ذات مشاعر فياضة؟....

هل سيأتي يومًا أكون فيه مع من يستحقني حقًّا واستحقه؟.....

هل سيأتي يومًا لأذهب فيه إلى موطني عندما أقابل من يألفني؟.....

***

(أيسل)

في الصباح الباكر تسقي أزهارها، ثم تجلس بالشرفة؛ لتتأملها قليلًا كيف تنمو وتزهر بعد أن كانت بذرة صغيرة، تراقب الزهور، والحق أنها تراقب ذاتها هي، فقد فاقت الزهور جمالًا، منذ نعومة أظافرها وهي تتسم بالرقة والحنان، كما أنها تعشق الجمال بأنواعه، وقد حصلت أيسل على نصيبًا من اسمها، فهي ذات جمال جذاب هادئ مثل ضوء القمر يسرق الأنظار، ويقع في حبها كل من يراها، بدرٌ والبدر من جمالها يغار.

بالرغم من أنها نامت في وقت متأخر بعد أن لعبت معها أفكارها عدة جولات أرَّقتها لساعات حتى استسلم العقل بعد أن تعب، وقرر أن يجعلها ترتاح وتنام، فقد استيقظت لصلاة الفجر لقضاء الفريضة، ولتدعو بما يدور بخاطرها.

ترى أيسل أن مشكلتها الوحيدة هو عقلها، فلا يتركها أبدًا، بل يجب بأن يفكر في كل شيء وأي شيء، وتضع العديد من الاحتمالات لآلاف الأشياء لهذا لا تستطيع في كل

الأوقات أن تتخذ قرارًا حاسمًا، ليس ضعفًا، ولكن لكثرة ما يجول بعقلها دون أن تعرف ما هو الأفضل، لهذا، ترى أن اتباع حدسها وقلبها أفضل من اتباع عقلها الذي يشتتها، وإن كان جداله مع قلبها لا ينتهي.

في إحدى جلساتها مع خليلاتها كانوا يتسامرون، فحلَّ الصمت فجأة، وفكرن في ما قد يفعلن، فجائت إحداهن بلعبة، تقوم كل واحدة منهن بسؤال أخرى أي سؤال قد يخطر ببالها، فكانت القرعة من نصيب أيسل في البداية، ثم باغتتها صديقتها (ريم) سائلة: ما هو الحب في وجهة نظرك؟.....

تعجبت أيسل من السؤال، وساد الصمت لثوانٍ كانت تجمع فيها شتات ذهنها، ثم أطلقت الإجابة أخيرًا بأنها لا تعلم، فهي لم تخض هذه التجربة من قبل، فقط قرأت عنه في الروايات، وشاهدته في الأفلام، وهي ليست من النوع الذي يتصنع معرفة شيء لم تجربه، ثم أردفت سائلة صديقتها ذات السؤال، فسكتت صديقتها قليلًا؛ لترتب كلماتها في جمل تضفي بعض العاطفة، ثم قالت:

– حسنًا، أرى أن الحب شيء يصعب وصفه بالكلمات، فهو شعور يغزو قلبك فجأة، مهما كنت حصينًا فسيخترقك لا محالة، ولن تجد نفسك سوى أنك تسلم قلبك وروحك له... هو سحابة تغطي سمائك، فينزل الغيث.. أرض خصبة تزرع فيها أجود الأزهار.. شمس ينقشع بها ظلام ما مررت به من أعوام قبل زيارته التي ستدوم ما تبقى من حياتك.. هو شغف لمن تحب.. وهو لعنة لن تُفَك مهما القيت من طلاسم إن فارقك حبيبك.. لهب يشتعل بقلبك اشتياقًا.. غيرة تفتك بك.. جنونٌ يصيبك؛ لتكون مع من تحب ويكون لك وحدك.

– الحب إما أن يذهب بك لأرض النعيم أو يفتك بك كسرطان يلازمك طول حياتك عندما يهجرك من تحب، والدواء فقط مجاورته.

انتهت ريم من كلماتها، وانتهت تلك الفقرة الدرامية، كان جميع الجالسين في حالة من

الدهشة مما قالته ريم، وكيف أتت بتلك العبارات، ثم عادوا للَّهو مرة أخرى.

عجيب أمر الفتيات! يتغير مزاجهن في أقل من دقيقة لعدة أشياء، من الصعب أن تفهم مزاجهن، وإن حاولت، فقد ينتهي بك الأمر في إحدى المصحات العقلية.

انتهت جلسة الأصدقاء، وعادت أيسل إلى المنزل، ما زالت كلمات ريم عالقة في ذهنها تسمعها، تشعر بشيء غريب حل بها، هي ليست على طبيعتها، ولكنها بخير.

جلست بشرفة غرفتها وشعرت برغبة عارمة أن تطالع السماء، ولا تفعل شيء سوى النظر لها وتأملها، ظلت على هذا الحال عدة دقائق، ثم انتبهت لنجمة لها بريقًا ليس أكثر ضوءًا، وإنما مميز بطريقة غريبة تشدها، شعرت براحة عندما نظرت له وتأملته، ثم ابتسمت تلقائيًّا، وفرَّت عَبرة لا تعلم من أين أتت، فهي لا تشعر برغبة في البكاء، ولا يوجد سبب يدعو لذلك، ثم حملت مسودتها الصغيرة وكتبت:

وقد كان في بُعدك عِلَّتي ... وإن في وصالك شفائي.

أقمت كلماتي على التمني ... وفي قربك ينتهي عنائي.

لم تكن أيسل من هواة الشعر، ولكن كانت تطَّلع عليه من حين لآخر، وكانت أحيانًا يأتي في بالها بعض الأبيات، فكانت تكتبها في مسودة صغيرة للحفاظ على هذه الأبيات من النسيان، فهي ذات قيمة كبيرة عندها.

حافظت أيسل على قلبها من كل من أراد دخوله، بالرغم من الأسلحة التي تسلح بها العديد من الشبان سواء مال أو جمال أو إظهار الطيبة، فلم يستطع أحد عبور تلك الأسوار المحيطة بقلبها، وكانت كل الأبواب مغلقة بإحكام، كانت تعلم أنه سيأتي وقت وستعطي مفاتيح أبواب ذلك الحصن المنيع إلى شخص يستحقها، ولكنها كانت تتبع قلبها، ولم يعطِ لها الإشارة حتى الآن، ولكنها شعرت بشيء يتخلل قلبها عندما تأملت تلك النجمة، وكأن إحدى دفاعاته قد سقطت.

مرَّت أيام على تلك الليلة، وفي كل ليلة كانت تجلس بشرفتها؛ لتأمل تلك النجمة التي شدتها، فهي تشعر بحرقة الشوق نهارًا، وفي الليل تشعر بالراحة معها، وتستأنس بها، أصبحت صديقتها المفضلة ليلًا، وما أفضل جارٍ للقمر من نجمة في جمالها!..

***

ترى شخصًا أمامها لا تميز ملامحه.. الرؤية مشوهة.. الصورة غير واضحة.. ولكنها رأته يمد لها يده ويقترب.. يزداد النور.. القلب في حالة نبض سريع مستمر وكأنه سيخرج من كهفه، ثم استيقظت وكان القلب ما زال في حالة الخفقان التي كان بها في الحلم، تحاول تذكر ما كان يحدث، لم ترَ سوى أعين تحوي بداخلها تلك النجمة التي ظهرت في حياتها فجأة، كانت تلمع بطريقة ساحرة تجذبها إليها.

كانت أيسل تشعر بالحيرة طيلة اليوم، حتى أنها لم تستطع التركيز في مذاكرتها، كما أنها أصبحت قلقة قليلًا، فقررت أن تشاهد الغروب أمام البحر؛ لأن ذلك يساعدها على الاسترخاء قليلًا، وهي تحب ذلك المشهد، وإن رأت أن ذلك يؤدي إلى موت الشمس مصدر الحياة، ولكنها تعلم أنها ستولد من جديد مرات ومرات وستعود الحياة، فالأمل لا ينتهي، وعلينا الوقوف كلما وقعنا.

وبينما كانت تشاهد الغروب، وانتظرت الليل؛ لتشاهد نجمتها قبل رحيلها شعرت بشعور غريب يقتحم قلبها، وكأنه شعاع شمس يتخلل ثغرات قلبها متناهي الصغر؛ لينير عتمة قلبها.

) يقتحم نورك الظلام المحيط بي متخللًا ثغرات ذلك الحطام المتراكم فوقي، فيصيب قلبي شعاعٌ من الأمل؛ ليُعيده إلى الحياة مرة أخرى).

ظل قلبها يخفق، لم يفعل هذا من قبل.. لا، لقد فعل في الليلة السابقة أثناء ذلك الحلم، فرحلت عائدة إلى المنزل، فهدأ وعاد إلى طبيعته، كانت على طبيعتها، أو هكذا تصنعت

أمام الآخرين، حتى جاء موعد نومها، فذهبت للفراش، ولكن كان للعقل قرارًا آخرًا كعادته، ونال منها الأرق لساعات مفكرة في ما حدث وما قد يحدث، ولكن الشيء المؤكد أنها كانت تشعر بشيء من السعادة والتي لا تعلم ما هو مصدرها، ارتسمت ابتسامة خفيفة على ثغرها، ثم تنهدت، وغطت في نوم عميق.

٣

كلٌ منا يبحث عن أشياء عديدة في حياته قد تكون مستلزمات للحياة أو قد تكون من الرفاهيات، ولكن هناك شيء واحد فقط يبحث عنه الجميع وهو الأمان.

أن تشعر بالأمان بين أيدي شخصٍ آخر، شخص تحبه، شخص يكون عالمك وما يحتويه، يكون ذلك البيت الذي تعود إليه بعد يوم طويل مليء بمشحانات الحياة.

تلك العلاقة التي تنشأ بين اثنين كانا في الأصل غرباء علاقة فريدة من نوعها؛ لأن قلبيهما قد تآلفا قبل لقائهما الأول، قبل أن يأتيا إلى الحياة حتى، قد يكونا التقا في عالم موازي في بُعد آخر من قبل، لهذا، قد رُبطت القلوب ببعضها من النظرة الأولى!.....

لا أحد يعرف ماذا يحدث وكيف يحدث، فقط تجد شيئًا يضرب قلبك كالصاعقة، وحينها تبدأ المغامرة، والتي قد تكون أجمل ما تعيشه، أو تكون لعنة تعكر لك حياتك.

***

بعد انتهاء وجبة العشاء وقيام كل من بالمنزل لما يشغله، انسحب حمزة بهدوء، وذهب للحديقة الخلفية للبيت، ثم ألقى ظهره على الأرض مصوبًا نظره للسماء، كان الليل شديد السواد مع غياب ضوء القمر، ولكن لم يكن من العسير عليه أن يعثر على نجمته، فقلبه دائمًا يرشده لها قبل عينه، ثم حمل مسودته وكتب:

(ومن دُجى الليل لست بخائفٍ، ومن ذا الذي يهتدي في الظلمات بنورك يخافُ).

أخذ يحادث نجمته لبعض الوقت عن ما يحدث له في النهار، ثم بدأ في قراءة الرواية، يقرأ منها القليل يوميًّا، وذلك لأنه يقسم يومه لعدة أشياء، فهو يرى نفسه متعدد الهوايات وأيضًا يشعر بالملل عندما يستمر في شيء واحد لمدة طويلة.

وبينما هو منغمس في قراءته رن هاتفه بمكالمة فيديو من صديقه مايك، فهذه التكنولوجيا قامت بتسهيل التواصل عن بُعد بشكل كبير، ولجزء من الثانية ظن حمزة أن مايك يعلم بأوقات تأمله للسماء لكي يحادثه.

قام حمزة بالرد عليه:

- كيف حالك يا صديقي؟..

- بخير الحمد لله.

- كيف هي الأجواء عندك، وهل تأقلمت على البلاد هناك؟

- هناك اختلاف كبير بين هنا وعندك، هنا تشعر وكأنك قد عُدت بالزمن قليلًا، البيوت لها ملامح عتيقة وتشعرك بالحنين، الناس هنا كأنهم عائلة واحدة لا تشعر بالغربة بينهم أبدًا، بالرغم أني لا أعرف أي أحد هنا، أشعر وكأني ولدت وعشت هنا، لم أبرح هذا المكان أبدًا، وكأنه جزء لا يتجزأ مني، أشعر بالراحة، قد يكون هذا لأن هنا موطني، والقلب يحن دائمًا إلى دياره.

- من الجيد أن أسمع منك ذلك الكلام، استمتع بوقتك حتى ألقاك بسلام.

أنهى حمزة مكالمته مع مايك، ثم بعدها جائت أخته خديجة تجلس بجواره، وقالت له مازحة:

- هل قاطعتك عن محادثة فتاتك.

هي تعلم أنه لا يحادث الفتيات إلا نادرًا، ولا يكلمهن سوى في حدود زملاء بالدراسة، هي تشفق على تلك الفتاة التي ستكمل ما تبقى من حياتها معه، فهو ليس جيدًا في التعبير عن ما يشعر به، كما أنه صامت أكثر الأوقات، وعندما يتكلم تكون كلماته قليلة لإنهاء أي حديث قبل أن يبدأ، ولكنه يمتلك قلبًا حنونًا للغاية، يمكنه أن يجعل من يقف أمامه يشعر بالآمان فقط بالنظر إلى عينيه، فقام بالرد عليها بنوع من السخرية:

– نعم لقد انتهيت، كنت أطمئن عليها وأنا بعيد هنا خلف البحار.

– هل تشعر بالسعادة والراحة هنا؟..

– أشعر بالراحة، نعم، وتسير الأمور بخير.

– البلاد هنا لها طابع أثري، كما أن البحر يضفي لها نوعًا ساحرًا من الجمال.

– كنت أحمل صورة معينة في عقلي ولم تختلف كثيرًا.

– أتمنى أن تكون أيامك هنا هادئة، فأنا أعلم أنك لا تحب التغيير كثيرًا، وترك المكان الذي اعتدته.

ظلا يتحدثان قليلًا، وعند انتهاء مسامرتهم شعرت خديجة أن هناك شيئًا مختلفًا به، وأنه ليس علي سجيته التي عرفته بها دائمًا، رأت بأنه مضطربًا وقلقًا، وهذا لا يحدث، فهو دائمًا ما يرتدي ثوب الهادئ الثابت، لا يظهر أي ضعف أو توتر في أي موقف كان.

– حمزة، هل هناك مشكلة ما؟

– لا، ليس هناك أي شيء.

– حسنًا، هل هناك شيء يزعجك؟

– أيضًا لا يوجد أي شيء.. ماذا هناك؟

– لا أعلم، ولكني أشعر أنك لست بخير، لست حمزة الذي عهدته طيلة حياتي.

– حقًّا لا أعلم ماذا يحدث!، كما أن الأرق يزورني منذ عدة أيام، ويطيل الزيارة لساعات.

– ما رأيك بأن تذهب وتجلس عند البحر قليلًا، قد يساعدك هذا على الهدوء قليلًا.

– لا تبدو فكرة سيئة، سأفعل.

اضطرابٌ مفاجئ للقلب يخفق بشدة.. الأدرينالين في أعلى مستوياته.. ما هذا الذي رآه في حلمه ليحدث كل هذا؟! زاد قلقه، يبدو أن هناك خلل ما به حقًّا.

في اليوم التالي ذهب حمزة إلى أحد الشواطئ الهادئة قبل الغروب بحوالي ساعتين، جلس أمام البحر يستنشق رحيقه، ويتأمل تلك الأمواج المندفعة للشاطئ، كان يشعر بالضيق، يريد التحدث إلى نجمته، ولكن الليل لم يسدل ستائره بعد، ففتح مسودته وكتب.

(وإن أزاحت الشمسُ القمرَ أو تزاحمت الغيوم ليلًا، فلا أجد قلبي سوى أنه يقيم المآتم بصدري).

ظل على حاله حتى جاء وقت الغروب، تأمله كلوحة جمالية أبدع بها من صنعها، يرى البعض أن الغروب يعني الموت؛ لأن الضوء يعني الحياة، ويرى البعض الآخر أن الغروب مجرد إبداع من خالق الكون يستمتع به من الألوان، ويرى البعض مثل حمزة أنه فرحة وشيء جيد؛ لأن الليل سيأتي دوره ويسود الظلام الكون، وتلمع النجوم، ويسطع القمر، فيكتب الولهان أشعاره متأملًا القمر كأنه يمثل حبيبته، ويتأمل جمال النجوم كل عاشق للهدوء، أما حمزة فلكي يخاطب نجمته العزيزة.

كان يجلس يتابع الغروب بفارغ الصبر حتى إذا غربت الشمس حلت صاعقة بقلبه، لا يدري ماذا يحدث!! فقد بدأ قلبه بالخفقان فجأة، وكأن عاصفة رعدية قد لحقت به، فأمسى هائجًا، ولكنه تذكر أن ذلك الشعور قد راوده من قبل في الليلة السابقة، وقد استيقظ على إثره، وكان قلبه لا زال يخفق، حتى وإن كان ذلك الخفقان أقل هذه المرة، إلا وأنه شيء يثير الحيرة، فكان يتلفت يمينًا ويسارًا كأنه يبحث عن شخص ما، ولكنه لا يدري من هو؟!!

إيقاظ الشعلة

١

ذاب القلب في نيران الحب بعد أن أُصيب بسهم أعينها، لا يدري هل وقع حقًّا في تلك الحفرة التي يهرب منها طيلة حياته؟.....

أم هل ألقت عليه إحدى التعويذات التي تتقنها تلك الغجرية؟.....

أم هي لحظة انبهار عابرة ويعود كما كان بعد قليل؟.....

ظل مشتتًا لبعض الوقت يتأملها ويتساءل كيف تشتت حاله منذ رؤيتها؟!

***

(أمجد)

عندما تكون في منتصف العقد الثاني لابد أن الحياة قاسية عليك بدون شريكة تخفف عنك آلامك وتشاركك أيامك وأحلامك.

أمجد كان يرى الحياة بنظرة مختلفة، كان يمقت العادات والتقاليد، والتي يراها قومه أنها شيء مقدس، مع العلم أنه يراها أنها تميز كل مجتمع إلا وأنه يرى أن في بعض الأحيان لا ضرر في مخالفة تلك العادات ما دامت لن تضر بالمصلحة العامة.

والدته كما هي باقي النساء بمصر إلا القليل، تخبره ليل نهار أنها تريد أن تسعد به وتراه في منزله الخاص، يصنع أسرته الخاصة وترى أحفادها يلتفون من حولها وتحملهم وتربيهم، من كثرة إلحاح والدته ظن في وقت ما أن والدته قد ملت منه، وتريده أن يترك المنزل، ولكن بطريقة لطيفة، ولكن هذه الأفكار فقط للمزاح، كما أنه لا يدري حقًّا كيف ستسعد بزواجه، فهو من سيتزوج، وهو من سيحمل مسؤولية تلك الأسرة التي سيكونها.

عندما كان أمجد صغيرًا لم يكن ذلك الفتى الجذاب، كان بدينًا قليلًا، ولكن لم يسبب له هذا مشكلة نفسية، لقد كان يفكر بطريقة مختلفة كما يقولون كان يسبق سنه، لم يكن مشهورًا بين الفتيات، وكان منبوذًا لا يملك أي أصدقاء، ولكنه تمنى آلاف المرات أن يكون له أصدقاء، ومع ذلك كان مشهورًا إلى حد ما لحصوله على الدرجات النهائية في جميع الأعوام الدراسية، فأراد الجميع أن يجواره فقط ليحصل على إجابات الاختبارات ثم يرحل، وها هو الآن أصبح مهندسًا رجلًا راشدًا وليس في حياته أي فتاة، مع أنه قد تغير كثيرًا، وحظي بشيء من الوسامة، واهتم بمظهره وبنفسه عمومًا، فقد أصبح ذلك الرجل الذي يهتم بلياقته البدنية، قمحاوي البشرة، والتي لها طابع جمالي خاص، وأعين بندقية ساحرة ذات اللون البني.

يرى أنه لا يحتاج لأي فتاة في حياته، فهو يستطيع أن يفعل كل شيء بنفسه، إن لم يتزوج ولم ينجب الأطفال لن تنقرض البشرية من أجل ذلك، كما أنه يريد إذا تزوج أن يكون قد عاش بعض الأعوام في حرية؛ ليحظى بمتع الشباب قبل أن يُقَيد بسلاسل المسؤولية، ويحمل على عاتقه مسؤولية أشخاص آخرين.

كانت حياته رتيبة إلى حد ما، من البيت إلى العمل والعكس صحيح، وفي بعض الأحيان كان يقوم بالخروج قليلًا مع صديقه المقرب باهر والذي يكون عكسه تمامًا، فهو يعيش حياة الشباب، ويفعل كل ما يريد ما دام ليس بالشيء الخطأ.

٢

ماذا يحدث؟

هل هذا مرض ما؟

هل هو اضطراب في وظائف الجسد؟

هل هناك مشكلة بالقلب؟

أخذ حمزة يطرح على نفسه أسئلة عديدة أثناء طريق عودته للمنزل، فهو لا يجد تفسيرًا منطقيًّا أو علميًّا لما حدث، عند وصوله للمنزل لاحظت أخته اضطرابه، فهي أكثر من يعرفه وتشعر به، فتبعته للحديقة بعد العشاء، وجلست بجواره، واستهلت الحديث:-

- أعلم أن هناك خطب، ما بك؟ أخبرني ماذا هناك لكي أتمكن من مساعدتك؟

- سأخبرك لأني لا أعلم ماذا يحدث حقًّا، بالأمس حلمت حلمًا غريبًا، لقد كنت أشاهد نجمتي في السماء، ثم قمت بمد يدي لها وكأني أحاول لمسها، ولكن ما حدث كان أغرب، لقد اختفت من السماء، ورأيتها كأنها تهبط إلى الأرض، فتمثلت في هيئة فتاة لا أرى منها سوى نور تلك النجمة، وكانت ترتدي ثوبًا يشبه لون السماء في غاية الجمال، كنت أحاول التقرب لأتعرف على ملامحها، ولكن وجدت نفسي قد استيقظت فجأة، وكان قلبي يخفق بشدة حتى كاد ينخلع، واليوم كنت أشاهد الغروب بأحد الشواطئ وحدث لقلبي ما حدث بالليلة السابقة، ولكن أقل شدة.

- هل قابلت أي فتاة اليوم؟

- لا.

- المرة الوحيدة التي حدث لي هذا الأمر كان عندما رأيت (أحمد) خطيبي أول مرة،

ثم وقعت في حبه منذ تلك اللحظة، كنت أفكر به دائمًا.. كنت سأخبرك أن الحب قد اقتحم قلبك يا عزيزي، ولكنك أخبرتني أنك لم تقابل فتاة اليوم.

– وهل من الممكن أن يكون هناك تفسيرًا آخر؟

– هناك تفسيرًا سخيفًا.

– لا بأس، أخبريني به.

– أعتقد أنك قابلت الفتاة ولكن ليس بالمعنى الحرفي.

– أوضحي أكثر من فضلك!

– من الممكن أن قلبك يعرف الفتاة، وعندما كانت بنفس المكان الذي كنت فيه تعرَّفَ عليها وحدث ما قد حدث.

نظر حمزة لأخته نظرة بلهاء، ثم ضحكا في نفس الوقت.

تعلم خديجة أن أخيها لم يصدقها، ولكنها تيقن أن هذا ما حدث، فهي تعتقد أن القلوب تتلاقى وتتعرف على بعضها قبل أن يدرك أصحابها ماذا يحدث وكيف يحدث.

تركته خديجة وحيدًا مع أفكاره لكي تحادث خطيبها، تركته أعزلًا وسط تلك الظنون تتقاذفه كما شاءت، فهي تعلم أنه لن يقتنع سوى بتفسير علمي سليم، أو أن ينتهي به المطاف بمقابلة تلك الفتاة وأن تكتمل قصته.

***

مرَّت عدة أيام على هذه الليلة التي كان جالسًا بها مع أخته ليخبرها بما يحدث، وفي أحد الأيام شعر بملل شديد، كان ينتظر على أحر من الجمر أن ينقضي النهار ويسدل الليل ستائره لكي تحضر نجمته ويخاطبها، كان يشتاق لها، كما أنه أراد أن يتأملها في ليلة أمس، ولكنها لم تحضر، فذهب للتجول قليلًا شاردًا بلا وجهة.

أخذ يتعرق بشدة، ليس معتادًا على تلك الحرارة الشديدة، ظل يتجول قليلًا حتى جاءت لحظة انقلب خلالها الطقس، هلَّ نسيم لطيف بين أوج حرارة الشمس، وسارت بجسده قشعريرة لا يعلم سببها.

كلما زادت خطواته للأمام زادت سرعة وقوة دقات قلبه، ظل يسير متجاهلًا ما يحدث، حتى وجد أمامه فتاة لم يدرِ ما حدث حينها سوى بعد أن رحل وسار في دربه شاردًا يحاول أن يفهم ما حدث للتو، ظل يتلفت خلفه؛ ليراها مجددًا، ولكن هيهات هيهات، لقد سارت في دربها واختفت عن الأنظار.

٣

العلاقة التي تُقام على أعمدة الود والتفاهم هي التي تدوم مدى الحياة.

ليس بالضرورة أن يولد الحب لحظيًّا، فقد ينمو بالمعاشرة الحسنة، والمعاملة الطيبة لهذا الود، هنا أفضل؛ لأنه المنبع الذي خرج منه الحب تلقائيًّا، وإن كان هناك حب دون تفاهم فيا حسرتاه على ما ستؤول له الأمور.

***

هل أنتِ بخير يا آنسة؟

أتى الصوت لينتشلها من العالم الذي ابتلعها لعدة ثوانٍ، والتي كانت ستنتقل إلى رحمة الله خلالها.

أصوات عالية متداخلة، منها الموبخة ومنها التي تسأل لتطمئن، أصوات السيارات تضفي نوعًا من الإزعاج بين تلك الأصوات المتداخلة، كان هناك صوتًا يبدو مميزًا هي لا تعرفه، ولكنه ذا أثر على قلبها، أكثر الأصوات وضوحًا وأكثر الأشخاص تميزًا.

وقفت عند ركن لكي تستجمع شتات نفسها ومن بعدها أكملت سيرها، كانت تحادث صديقتها ريم على الهاتف أثناء سيرها، وأخبرتها بما حدث:-

- هناك شيء غريب يحدث لي.

- خيرًا، ماذا هناك يا فتاة؟

- سأخبرك كل شيء من البداية.

- عندي فكرة، ما رأيك بأن تأتي عندي اليوم وتخبريني بكل شيء باستفاضة؛ لأني أرى بأن تكوني بجواري أفضل.

- حسنًا، لا بأس، أنا قادمة.

وصلت أيسل إلى بيت صديقتها، وجلسا لتبدأ بإلقاء قصتها.

بدأت أولًا بما رأته في حلمها عندما وجدت شخصًا ما يمد لها يده ويقترب، ولكنها لم تميز من هو، ثم قصَّت لها ما حدث عند الشاطئ عندما كانت تشاهد الغروب، و أخيرًا جاءت لما حدث قبل أن تأتي لها.

كانت تعبر الطريق، ولكنها كانت غافلة من مراقبته، كما أنها لا تدري لِمَ يخفق قلبها بقوة مثل هاتان المرتان في حلمها وعند الشاطئ، كانت تشعر باضطراب وتشتت ذهنها.. غابت عن العالم المحيط بها.. قلبها يخفق باستمرار.. رأت شخصًا ما يمد يده ليجذبها بقوة وسرعة.. يسألها هل هي بخير أم لا.. يوبخها لكي تنتبه للطريق.. وقف معها قليلًا يطمئن عليها وكانت أعينه القلقة تشي بالكثير، ولكنها لم تعرِ ذلك اهتمامًا.

كل هذا حدث وهي لا ترى غيره ولا تسمع سوى صوته، وكأن العالم تلاشى من حولهما، ولم يبقَ سواهما.

اطمئن عليها ثم رحل، أدركت بعد ذلك عندما عادت لرشدها أن هناك سيارة كانت ستسلب منها حياتها.

ظلت ريم منصتة لها، مستمتعة بكل ما تقوله، وكأنها تسمع رواية مشوقة كالتي تقرأها، عندما انتهت أيسل نظرت لها ريم، وقالت:-

- كل ما قولتيه شيق للغاية وكأنه أحداث لفيلم ما (تقولها وهي تضحك).

- هل تعتقدين أن هذا وقت المزاح؟..

- آسفة، ولكن هذه الأشياء غريبة.

- معكِ حق، حتى أنا لا أدري ما كل هذا.

– لا أعلم، ولكن هناك شيء قد لاحظته، لا أدري، هل هي مجرد صدفة أم هناك شيء ما حقًّا؟!

– ماذا هناك، أثرتي فضولي يا فتاة؟...

– ما حدث بحلمك يشبه ما حدث اليوم.

سكتت أيسل لبضعة ثوانٍ تفكر بما قالته ريم، ظهر على وجهها الدهشة وأخذت تفكر بصوت عالي.

هل حقًّا ذلك الحلم وما حدث اليوم نفس الشيء؟...

وهل من الممكن أن يتحقق حلم غريب مثل هذا؟...

وهل من الممكن أن تكون جميع هذه الأحداث مرتبطة ببعضها؟...

هل من الممكن أن أقابله ثانية؟...

هي لا تعرفه ولا تتذكر ملامحه، ولكن إن رأته مرة أخرى فبالكاد ستتعرف عليه.

قاطعتها ريم مازحة:-

– هل سنذهب لتناول الطعام قبل أن يبرد؟

– هيا، فأنا أشعر بالجوع بعد كل هذا التفكير.

– حتى وإن لم تفكري أنتِ دائمًا تشعرين بالجوع.

– حسنًا، أين الطعام قبل أن التهمكِ أنتِ؟...

ثم ذهبتا وهما يضحكان لتناول الغداء، ومن ثم تكملا مسامرتهما، ولا تدري الفتاة أنها قد بدأت بالتعلق بذلك الشاب حقًّا.

٤

– باهر هل حالي بائس لدرجة كبيرة.

– لا يا صديقي من قال هذا، إنك أكبر بائس بيننا فقط.

– تبًّا لك.

– اهدأ يا فتى إنني أمزح فقط، لكن لِمَ السؤال؟

– البعض منا لديه فتاة يحبها وتحبه، والبعض الآخر لديه العديد من الصديقات، إنما أنا أجلس وأشاهدكم.

– قد لا تكون ذا جاذبية بين الفتيات، أو أنك لم تحاول أو لا تريد، ولكن ليس لهذا علاقة بدرجة البؤس التي لديك، إن هذا الأمر لا يحسب هكذا.

على سبيل المثال قد تعجب بفتاة، وتقضي معها ما تبقى من عمرك، وتنغص عليك حياتك، عندها ستكون بائسًا حقًّا، وسنرثيك في نهاية كل يوم، أنت لست بائسًا، ولكن لم يأتِ الشخص المناسب بعد، الذي يستحقك حقًّا وتسعد معه.

– هل صديقي فيلسوف وأنا لا أدري أم ماذا؟

– لا تقلل من شأني يا فتى، فأنا متعدد المواهب، ستشاهدني أعطي محاضرات تنمية بشرية لاحقًا.

– كم أشفق على هؤلاء المساكين الذين سيستمعون لك.

– حتى أنا أشفق عليهم.

باهر هو الصديق المقرب إلى أمجد، قد لا يشبهه، فهو من ذلك النوع الذي يحظى بحياة

مفعمة بالحيوية، ودائرة معارفه كبيرة، وعنده شيء من البهرجة والجنون في أفعاله، ويميل إلى المرح على عكس أمجد، ذلك الشاب الهادئ والغير معروف سوى بين دائرة صغيرة من الناس، ومع ذلك فإن باهر له جانب جدِّي عند حدوث أمر مهم، وتجده يتكلم بما يحكمه العقل بلا مزاح، وكأن الإثنين يكمل كل منهما الآخر.

كانت تلك إحدى جلساتهما الأسبوعية؛ لأن كلًا منهما ينشغل بعمله وحياته طيلة الأسبوع، ويجتمعا في نهايته.

عاد أمجد للبيت، وجلس يستريح، ولكنه شعر بأن هناك شيئًا، ونظر لأمه فابتسمت له، فتيقن من شكوكه، وها هي أمه قادمة؛ لتجلس بجواره وتنادي على أخته؛ لتعطيها الهاتف؛ ليتكرر ذات الشيء وذات الكلام.

– إحدى صديقاتي قد انقطعت عني أخبارها منذ مدة طويلة، وشاء القدر أن يجمعنا مجددًا منذ ما يقارب أسبوعًا تقريبًا، وخمِّن ماذا؟... لديها فتاة حسناء تصغرك بخمسة سنوات تقريبًا، الفتاة من وجهة نظري لا تشيبها شائبة، ما رأيك بأن أحدث والدتها؟ فهي صديقتي قبل كل شيء، وأعلم أخلاقها جيدًا، وأثق بها وأثق أنها أنشأت الفتاة جيدًا على الخلق السليم، كما أنها جميلة وتبدو رائعة.

مع أن والدته كانت تعلم رده من البداية، ولكنها فوجئت عندما وجدته يوافق هواها هذه المرة، وإن كان على مضض، فأخبرته أنهم سيذهبون لزيارتها بعد يومين.

دخل أمجد غرفته وبدأت الأفكار تشهر سيوفها لتفتك بعقله، فهو لا يدري، لِمَ وافق هذه المرة على رؤية الفتاة التي اختارتها والدته؟

هل تكون هذه الفتاة هي المناسبة لي حقًّا؟!....

ولِمَ دونًا عن غيرها وافقت لرؤيتها؟!....

وما هذا الشعور الذي يتلاعب بقلبي؟!....

وهل سيتم الأمر على خير؟!....

لأعطي فرصة هذه المرة وأرى ما سيحدث، يجب أن أفتح باب قلبي قليلًا.

أخذ يتأرجح بين عديد الأسئلة التي تتوالى على عقله حتى استسلم للنوم أخيرًا، وغط في نوم عميق كطفل أرهقه البكاء.

صدمة وأدمع

١

وإن أصابك أسهم العشق إما أن يُداوي الجرح بقرب الحبيب وإما يزداد النزيف من نيران الشوق.

***

(ريم)

في كل ليلة تذق تلك الفتاة نوعًا خاصًا من العذاب، ليس بمرض أو سوء معاملة من أحد، بل ذلك العذاب الذي لا تستطيع وصفه مهما بلغت من الفصاحة وامتلأ معجمك اللغوي بالعديد من الكلمات، سيظل ذلك العذاب سرمدي بكل لحظة تظل بها بعيدًا عن من تحب، في كل وقت لا تشبع فيه عينيك من تأمل من هَوَيت، هل دائمًا يقودك الهوى إلى الهاوية حقًّا؟ أم أن هناك شيئًا سيختلف هذه المرة.

بعد أن انتقلت حديثًا إلى منطقة سكنية جديدة، وبعد ذلك بحوالي شهرين أصيبت ريم بسهم اخترق قلبها عمقًا، ومنذ ذلك الحين ظل السهم ساكنًا في القلب، لم تستطع انتشاله، وكل ليلة يزداد النزيف ومعه يزداد الألم.

في أحد الأيام كانت عائدة للمنزل ليلًا، وعندما اقتربت من الشارع الذي تسكن فيه باغتها إحدى هؤلاء الأشخاص الذين يتعرضون للناس بالأذى، فأراد أن يعتدي عليها، ولكنها قاومت وبشدة، كان الله معها، ألقى إليها بقوة لا تعلم مصدرها، وقاومت باستماته حتى أطلقت صرخة؛ لتستغيث بأي أحد، حتى جاء من أنقذها من هذا المعتدي، ولكنها لم تسلم من أعينه.

ذلك الشاب مهندل الشعر صاحب الجسد الرياضي قد أنقذها وأنقذ شرفها، ثم سألها إذا كانت بخير ورحل في الحال، تظن أنها رأته من قبل مرات عديدة، ولكنها لا تذكر أين،

ظلت رائحته معلقة بأنفها، ليس لأنه كان يضع أحد أنواع العطور، ولكن لكل منا رائحة تميزه عن غيره، وظلت تلك الرائحة تلازم أنفها.

ليالٍ تتوالى يرهقها الأرق مفكرة في من يكون هذا الذي سلب منها روحها وسرق منها عقلها، تعيد التفكير مرارًا وتكرارًا في ذلك المشهد الذي لا تذكر منه شيئًا سواه، وبعض اللحظات الأخرى قبل مجيئه.

يشاء القدر أن في أحد الأيام أثناء سيرها في أحد الشوارع التي تجاور مكان سكنها رأته يدخل إحدى البيوت، فشعرت وكأنها قد أمسكت طرف الخيط، ظلت تتردد على ذلك الشارع، حتى تتيقن أنه يقطن بذلك البيت، وعندما تيقنت من ذلك استقصت عن المعلومات التي تخصه، وما أسهل ذلك عند الفتيات عندما يُريدن معرفة شيء، فلا يعيقهن شيء، فهن يصبحن محققات سريات، ويعرفن كل ما يريدن بسهولة.

تريد طريقة للتقرب منه؛ لرؤيته من مسافة أقصر؛ لتتأمله كما تشاء دون أن تختلس النظر لفعل ذلك، ودَّت لو أنها تخلد إلى النوم ثم تستيقظ لتجده بجوارها، لكنها كانت خائفة دائمًا، وذلك بسبب تلك الفكرة التي تزورها كل ليلة، فتذهب بها إلى الجحيم، تظل خائفة من إن لم يكن لها كيف سيكون حالها؟ هل ستظل على ما هي عليه أمد الدهر، أم ستسوء أكثر؟ كل هذه الخواطر تتضارب برأسها تكاد تفتك بها.

ظلت على حالها حتى جاء أحد الأيام بالعاصفة التي اجتاحت كل شيء، وأخذت تسلب كل خيط أمل، حتى انهارت وإن لم تظهر ذلك بخارجها، ولكنها كانت تتساقط من الداخل، كانت تضع احتمال فقدانها له أمامها حتى لا تصطدم بالواقع فجأة، مع أنها لم تحصل عليه بعد، وتكون مهيأة لهذا، ولكنها لم تتوقع أن يكون الأمر بهذه الطريقة، لم تدرِ ما تفعله، هل ستخسر شيئين دفعة واحدة أم تحاول أن تتمالك نفسها ولا تخسر أحد الشيئين، ولا يعلم أحد بتلك النيران التي تلتهم قلبها.

***

استيقظت من النوم على صوت هاتفها في ساعة متأخرة من الليل وهو يرن، ونظرت لترى من المتصل، فوجدتها صديقتها أيسل، كانت تعبة، فتركت الهاتف ليكمل نغمته؛ لتكمل نومها، ولكن فور انتهائه من المرة الأولى عاد ليصدر صوت رنينه مجددًا، ولكنها قد أخبرت أيسل من قبل أنها لا تحب أن يزعجها أحد وهي نائمة، وكانت أيسل تحب أن تمازحها دائمًا، فتتصل بها في وقت نومها، وتقوم بمضايقتها قليلًا مثل أن تلقي بعض النكات السخيفة وتنهي المكالمة، ولكن هذه المرة شعرت بأن هناك شيئًا ما حقًّا، فرأت أن تجيب، وبدأت كلامها مازحة بصوت نعس:-

- هل حلَّ الصباح عندك أم ماذا أيتها القمر المكتمل، أريد أن أكمل نومي!

فجاءها الصوت من الطرف الآخر بنوعٍ من التردد والتشتت:-

- لا لم يحلَّ الصباح عندي يا خفيفة الظل، ولكن هناك شيء أردت أن أخبرك عنه بما أنكِ صديقتي المقربة.

تأكد شعورها عندما سمعت صوت صديقتها

- ماذا هناك؟.. صوتك يقلقني.

- حسنًا، سأقص عليكِ كل شيء.

٢

نحن بحاجة دائمًا إلى من ينتشلنا من وحشة وحدتنا، نحتاج لمن يكون لنا عونًا، لركن دافئ نحتمي به من قسوة العالم، إلى صندوق سري نلقي به ما يجتاح قلبنا ويشغل بالنا، نحتاج إلى من يتشبث بأيدينا ولا يتركنا مهما تقطعت خيوط الوصال بيننا.

***

صوت بوق السيارة يرتفع فجأة.. فتاة كادت أن تنتهي حياتها في أقل من ثانية لولا لطف الله بها، وجعلني سببًا لنجاتها عندما جذبتها من ذراعها بسرعة قبل أن تجاور أجدادها في غرفة بين التراب.

- هل أنتِ بخير؟

- نعم، شكرًا لك.

- قدر الله وما شاء فعل، ولكن فلتحترسي عندما تعبرين طريقًا في المرة القادمة، فقد لا أكون موجودًا حينها.

انهى جملته مع ابتسامة خفيفة محاولًا تهدئة الأمور، ردت له الابتسامة بأخرى وشكرته مجددًا ثم رحل عنها، كان يشعر براحة غريبة تسكن قلبه برغم خفقانه المستمر، ولكنه لا يعلم لماذا!!

بعد أن كان يشعر بالملل وانطفائه أصبح الآن سعيدًا، خفيف الروح، لم تزل ابتسامته منذ أن رآها، وبالرغم من أنه لم يرها سوى بضعة دقائق، ولكن قد نُقشت بعقله، وظلت راسخة به كلوحة الموناليزا.

أكمل يومه حتى احتل الليل العالم واستيقظت النجوم، ولكن نجمته التي كان

بانتظارها لم تستيقظ، وكانت تلك هي الليلة الثانية تواليًا التي لا تحضر بها، وشعر بأن هناك شيئًا غريبًا يحدث، كان ينتظر بشغف ليخاطبها، ولكن وُئِد شغفه في المهد؛ ليذهب لفراشه بخُفَّيٍّ حُنَين، ولكن ابَت أن تفارق تلك الفتاة أحلامه، تلك الملامح البسيطة الهادئة المنقوشة بعناية شديدة على وجهها وأعينها السوداء التي لا تملك حيلة أمامها سوى أن تغرق في بحورها، وكأنها تلقي عليك إحدى التعويذات للسيطرة عليك، وتظل ناظرًا لها.

ليالٍ تتوالى بدون نجمته العزيزة، يظل ساعات طويلة بانتظارها ولا تطفئ نيران شغفه، ذهب مع أخته ليتجولا قليلًا، وذهبا إلى أحد المطاعم، وفي حين انتظارهم أن يأتي الطعام، نظرات دهشة اعتلت وجهه، وكان في حالة ذهول...

عاد الاخوين إلى المنزل بعد يوم حافل بالكثير من الأشياء، جلسا ليتحدثا قليلًا عن أمر يشغل بال حمزة، ثم انصرف كل منهما إلى غرفته، تأمل حمزة السماء كعادته، وكانت يداه في حالة تأهب لتخط الكلمات التي تتوالى بعقله الواحدة تلو الأخرى، فكتب:

غصنٌ مالَ من نسيمٍ هادئٍ ... تغنَّى بجمال ما لمسَ.

عطرُ بستانٍ قد توارى عِندما ... امتُزج برحيقها وتجانسَ.

حورٌ أرضها روضٌ يُذهل ... الرائي من جَمالِ ما أنسَ.

قلبٌ أصابه العشق ذَاكِرُها ... سواءٌ أصبح أو أمسى.

كان يتجول قليلًا ثم انتهى به المطاف أمام البحر مكانه المفضل، كان يصحب مسودته معه دائمًا، فقام بقراءة كتاباته، ويشعر بالكلمات المكتوبة بقلبه، تذكر ما حدث في الأيام التي ولَّت، وذلك الحلم الذي يراوده باستمرار، وبينما هو منغمر في أفكاره وجد من يجلس بجواره..

***

بين يديه أحد الكتب التي ينغمر في قراءتها دون كلل أو ملل، فتلك الكتب هي أصدقائه المقربين، يجلس بذات المطعم، فقد أصبح يتردد على ذلك المكان بكثرة في الآونة الأخيرة، وبينما هو جالس يسبح في خياله في ما حدث وما يتمناه أن يحدث، إذا بشاب يقربه في السن يجلس أمامه، ثم بادره في الحديث وكأنه يعرفه منذ زمن، وقام بانتشاله من أفكاره وأحضره إلى عالم الواقع على حين غرة؛ تحدثا قليلًا ثم تعرفا على بعضهما البعض وأصبحا صديقين.

وفي نهاية الجلسة قام الشاب بدعوة حمزة إلى شيء ما ووعده حمزة بالحضور بإذن الله.

مرت الأيام حتى أتى ذلك اليوم الذي سيفي حمزة بوعده فيه، وبدأ يتأنق ويتجهز لتلك المناسبة ويرتدي بدلته، وبينما كان يتجهز إذ بأخته حضرت تشاكسه، فلم تره يتأنق هكذا من قبل:

- إلى أين أنت ذاهب بهذه الأناقة أيها الفتى الجذاب؟

- دعاني صديق لحضور حدث مهم لديه.

- لم أكن أعرف أن لديك أصدقاء هنا، فأنت لم تأتِ إلى مصر منذ سنوات.

- لقد تعرفت عليه منذ أيام قليلة، وسرعان ما انسجمنا سويًا، ويبدو شابًا جيدًا.

- فلتستمتع بوقتك إذًا.

- وإلى أين أنتِ ذاهبة هكذا؟

- إنها خطبة اخت صديقتي، لقد دعتني لها وهي بانتظاري لنذهب سويًا.

- حسنًا إذًا، لا تتأخري، وسأمر عليكِ ونأتي للمنزل سويًا.

- اتفقنا إذًا.

أنهت خديجة حديثها السريع مع حمزة، ثم أكمل هو ترتيب نفسه للخروج.

ذهب حمزة وكان هناك الكثير من الوقت قبل الموعد المحدد للحضور، فذهب للجلوس قليلًا في أحد الأماكن لشرب القهوة، ولإضاعة بعض الوقت، فهو يحب كثيرًا المكوث بمفرده، يشعر بالراحة والهدوء، لا يوجد من يعترضه على أفكاره أو آراءه، كما يمكنه فعل ما يشاء دون أن يقاطعه أحد.

مرَّ الوقت سريعًا، فلاحظ حمزة أن موعد انصرافه قد حان، كان هناك شعور غريب يتوغل بداخله ونغصة تصيب قلبه، فأصبح مقبوضًا وكأن هناك شيء ما يخبره ألا يذهب، ولكنه استمر في طريقه حتى وصل للمكان المراد.

ذهب للبحث عن صاحب الدعوة حتى وقف في لحظة وظل متسمرًا.. هل ما يراه حقيقة؟ لا يدري ما يفعل! انطفأت الأضواء، وذبلت النجوم، واختفى القمر، اشتد سواد الليل، وهبت عاصفة أطاحت بقلبه، قدماه تتهاوى، ويتماسك بصعوبة.

٣

أنا الذي التقمه بحر عينكِ فأضعت بوصلتي، لا أجدني ولا أصل إليكِ.

***

مرت الأيام منذ حديث والدته عن تلك الفتاة، كاد أن ينسى أمرها، فهو دائمًا ينشغل في عدة أشياء، سواء دراسة أو عمل أو حتى هواياته، توالت الليالي يحاول أن يرسم في عقله كيف سيكون اللقاء الأول، وكيف ستجري الأحداث، ولكن في النهاية كل هذا من وحي الخيال.

جاء اليوم الذي سيذهب فيه لملاقاة تلك الفتاة، والتي تضع والدته أملًا كبيرًا عليها لكي يتم ذلك الأمر، فهي تحب صديقتها تلك، كما أنها ترى تلك الفتاة مناسبة له للغاية، لن يقول هذه المرة أنه ذهب رغم أنفه، ولكنه ذهب طواعية منه هذه المرة، ولكنه لا يدري ما هو السبب!!

تأنق ذلك اليوم بطريقة غير مسبوقة، فهو معروف عنه أنه لا يهتم بمظهره بدرجة كبيرة، لا أقول أنه يبدو مبعثرًا وغير ومنظم، ولكنه دائمًا ما يبدو عاديًا، ولكن هذه المرة تعجب الجميع! حتى أن والدته ظنت أن هذا الموضوع تم وأنهم ذاهبون لحفل العرس الآن.

وصلوا للمنزل المراد، ودلفوا واحدًا تلو الآخر، وكان أمجد آخرهم، وعندما دخل كان دائمًا ما ينظر إلى الأرض ولا يرفع أعينه إلا عندما يحدثه أحدهم، فمازحه رب المنزل:-

- هل أنت خَجِل هكذا دائمًا.

فأجابه أمجد:-

– لا يا عمي، ولكن لقد تربيت أن للبيوت حرمة، ولا يجب أن استرق النظر داخل بيوت الآخرين.

ترك هذا انطباع جيد للغاية عند الأسرة المضيفة، وأصبحوا يكنُّوا له كل احترام، وما أجمل أن يكون الانطباع الأول بهذا الشكل!

كانت الجلسة لطيفة، دارت الأحاديث بين الصديقتين القدامى وقاما باسترجاع بعض الذكريات والضحك على بعضها والجميع في حالة سرور وانخراط في الأحاديث المختلفة، كان أمجد الشخص الوحيد الغائب عن تلك المسامرة، لم يكن غائبًا بذلك المعنى الحرفي، ولكن عقله وقلبه لم يكونا متحدين مع جسده، كان سارحًا في عالم آخر من عوالم الخيال.

عندما دلف أمجد البيت وبدأ بإلقاء التحية على من في البيت واحدًا تلو الآخر ثم جاء دور تلك الفتاة التي قد أتى من أجلها، وتلاقت أعينهما، فألقى هو التحية، وألقت هي شِباك أعينها، فعلقت به، والتقمت قلبه، وسرقت عقله، ثم فتحت صندوق قلبه دون أن يشعر، وتملكت تلك المشاعر التي بداخله، حدث كل هذا في لمح البصر، ولا يدري ما حدث له، ولكنه كان شعورًا لطيفًا هادئًا، وكأنه على سحابة يطير في السماء، وبدأ العالم يتلاشى من حوله.

(ما بالك أُلقي سلام الله فترميني بسهامك قاصدة قلبي، فأصبحتِ سويدائه، جئتُ للسلام فأعلنتِ الحرب، وها أنا بتُّ أسير عينيكِ).

تدخلت والدة أمجد وقامت بتجهيز بعض الأسئلة للفتاة، وبعد بعض المحادثات وتبادل أطراف الحديث بينها وبين الفتاة وأمها علمت بضعة الأشياء المبدئية المتعلقة بالدين والأعمال المنزلية والضروريات الحياتية، وأُعجبت بالفتاة للغاية، ورأت أنها هي المناسبة بلا شك ولا تريد أن تجعلها تضيع من بين يديها، ولكن الرائع في الأمر أنها قد استخلصت المعلومات بطريقة لا تُشعر بها أحد بأنها تسعى لشيء ما.

) هناك بعض الأمهات يسعَين للبحث عن فتاة مثالية لأبنائهن، وكأن الفتيات سلعة تقوم بالبحث عن الأفضل بينها، ولا ترى إذا كان ابنها هذا يستحقها أم لا، كما أنها لا ترى إذا كانت ستناسبه حقًّا أم لا، فدائمًا ما يكون هناك بعض التفاصيل تغفل عنها تلك الأمهات، ولا ترى أنها هكذا تقوم بتقليل قدر الفتاة، كما أنها تعطي الآخرين انطباع سيء عن ابنها الذي لا يتحمل عاقبة شيء لم يفعله وهو لا يدرك ذلك).

***

ظل أمجد صامتًا وبداخل عقله تدور المئات من الأحاديث معها، يريد أن يتحدث معها، لا يعلم في أي شيء قد يجعله يتبادل معها أطراف الحديث، ولا يكون مملًا، أو أنه يخرج كلماتٍ مبعثرة تظهر توتره، كانت طباعه تخبره أن يبقى صامتًا، فهو لا يجيد الحديث مع الفتيات، وكانت روحه تقوم بدفعه ليخاطبها، حتى حضرت له فكرة ليبدأ معها الحديث، فقام بأخذ نفس عميق وبدأ بإخراج العبارات الواحدة تلو الأخرى، وكان يفكر جيدًا قبل أن يقول أي شيء حتى لا يقع في خطأ ما يسبب له الإحراج.

وبعد بضعة محادثات قليلة ما زال متعطشًا للحديث معها، يريد المزيد والمزيد، ولكنه لم يرد أن يكون ثقيلًا، فقرر أن يكون الصمت حليفه قليلًا، فها هو خالف عادته وأحد طباعه، وكسر الصمت وقام بالتحدث.

انتهى وقت الزيارة سريعًا، وحصل الجميع على مبتغاه منها، فرحل أمجد وأسرته، ولكن جسده فقط من غادر، ومازال عقله عالقًا عندها يدير الأحاديث معها، وروحه تطوف بداخل أعينها.

وكأنها من بنات نعش بداخل أعينها قد دُفِنت

لا سلمًا للسماء يدركها ومن جمالها قد ذُهلت

عاد إلى المنزل خفيف الروح لم تغادره ابتسامته، كان بحالة لم يكن بها من قبل، ولقد

لاحظت أمه رضاه وموافقته هذه المرة، ولكنها لم تتحدث، وذهب كل واحد منهم إلى فراشه، وزارهم النوم فسكنوا معه، ولكن هناك من أبى النوم أن يزوره، وتركه لأحلام اليقظة؛ لينعم بها كيفما شاء، وهو يتأمل السماء مستحضرًا صورتها مكان القمر، حتى أهلكه التفكير، ثم غط في نوم عميق.

في اليوم التالي ذهب هو إلى والدته على غير العادة لكي يحدثها عن تلك الفتاة، ويسرعوا في إنهاء الأمور الرسمية، ويقوموا بعقد الخطبة، فذهب إليها ثقيل الخطى ونظر لها قائلًا:-

- ما رأيك بها؟

تعجبت والدته قليلًا لما حدث، فهي لم تعتد أن يأتي إليها ويحدثها في ذلك الأمر، ولكنها قد لاحظت أنه قد انجذب إليها، فجاوبت:-

- تعلم جوابي من قبل ذهابنا.

- كنت أتأكد فقط إن كنتِ ما زلتِ عند قرارك، فمن الممكن أن يكون قد تغير بعد الزيارة وحديثك معها.

- لا لم يتغير رأيي، بل زاد تشبثي به بعد تلك الزيارة وحديثي معها، لكنك لم تخبرني ما هو قرارك!

- أنتِ أعلم مني في الكثير من الأمور التي تخص الحياة بعد الزواج وإقامة البيت السليم، فلهذا إن كنتِ مصرة فليس لدي مانع.

نظرت له أمه بطريقة تقول له بها هل حقًا أنت موافق لأني مصرة وليس هناك شيء آخر!

- هل حقًّا أنت موافق لأني مصرة؟

على كل حال هذه حياتك أنت لا أستطيع أن أجبرك على شيء.

– لا أعلم، ولكني أشعر براحة كبيرة لها دونًا عن غيرها.

– حسنًا يا بني، فلتصلي صلاة استخاره ليهديك الله إلى ما هو خير بإذنه.

– على خيرة الله يا أمي.

توالت أيام قليلة ومعها ينفذ صبر أمجد يريد أن تتم تلك الخطبة في أسرع وقت، حتى جائه الخبر السعيد يدق بابه، فذهبت له أمه تخبره أنهم سيذهبون لتحديد ميعاد الخطبة، والحديث عن الاشياء الرسمية في نهاية الأسبوع، وما أخَّر الرد سوى أن الفتاة كانت تأخذ مهلتها بالتفكير حتى وافقت، ما انفك أمجد من سماع الخبر حتى قفز قلبه فرحًا، وارتسمت ابتسامة عريضة على ثغره، وملأته البهجة والسرور.

مرت الأيام سريعًا بالنسبة إلى أمجد لأنه كان يشغل باله بأشياء أخرى كي لا يتوتر، حتى جاء ذلك اليوم الذي ينتظره بفارغ الصبر، وذهب إلى بيت الفتاة برفقة عائلته لوضع النقاط على الأحرف، وتركهم يتحدثون عن الترتيبات وما يتم الاتفاق عليه بين الأهل من أمور مالية وما غير ذلك، ثم استأذن الحضور لكي يتحدث:–

– اعتذر عن المقاطعة، ولكن، هل لي بتقديم اقتراح!؟

رد عليه والد الفتاة:–

– بالطبع يا ولدي، تفضل.

– أريد أن نُعجِّل من الخطبة وأن تكون في أقرب وقت.

– ومتى تريدها أن تكون؟

– إن كان الأمر بيدي فلا مانع عندي من أن نعقد القران الآن.

ضحك الحضور عفويًا من كلام أمجد، فرد عليه والده:–

– ولِمَ العجلة يا بني، عليكما أن تتعرفا ببعضكما جيدًا أولًا.

فقال أمجد:–

– أريد أن نتعرف ببعضنا تحت مسمى رسمي لا غير ذلك، كما أن المحاسن والمكارم تظهر من الوهلة الأولى، كما أن أهل البيت أصحاب خلق وكرم ويتسمون بكل خير.

رد عليه والد الفتاة:–

– باركك الله يا ولدي، ومتى تقترح أن تكون الخطبة؟

– ما رأيكم بأن تكون بنهاية الأسبوع القادم حتى نأخذ الوقت الكافي للقيام بالاستعدادات اللازمة!

– حسنًا يا ولدي، لا بأس، وهو كذلك.

ابتسم أمجد فرحًا، وأصبح قلبه ينبض بشدة، لا يصدق أن الأمور تسير بهذه السلاسة، وبعد مرور بعض الوقت انفضت الجلسة، وذهب كلٌ إلى مشغله.

***

– لقد تم الاتفاق على كل شيء بالأمس بفضل الله.

– الحمد لله يا صديقي، بارك الله لك فيها وجمعك بها في خير، متى ستكون الخطبة بإذن الله!؟

– دعنا نلتقي غدًا، وحينها سأخبرك بكل شيء.

انتهت المحادثة سريعًا بين أمجد وصديقه باهر على أن يتم طرح كل التفاصيل على طاولة عند لقائهما.

جاء اليوم التالي، وذهب أمجد لملاقاة صديقه، وانتظره بإحدى المطاعم، وبينما هو

جالس شعر ببعض الملل، فوجد شابًا يقربه في السن يجلس بالطاولة التي تجاوره، فقرر أن يشاركه بعض الوقت حتى يأتي صديقه، كما أنه استحسن الفتى من هيأته، فلم يجد مانعًا من أن يصاحبه بعض الوقت، ثم خطرت له فكرة يبدأ من خلالها الحديث معه، وقرر أن يظهر غريب الأطوار، فذهب إلى طاولة الفتى وجلس، ثم قال:-

- الوحدة قاتلة، تقوم بابتلاعك في فجوة سوداء من الصعب الخروج منها.

نظر له الشاب باستغراب في البداية يحاول استيعاب ما يحدث، ثم رد عليه:-

- ولكنها تجعلك تشعر بشيء من الراحة والسلام، فلا تحمل هم الحفاظ على العلاقات، كما أن تلك الفجوة السوداء تستطيع الخروج منها بسهولة عندما يكون بجوارك الشخص المناسب.

- مدينة البندقية بإيطاليا رائعة!..

- ولكني أفضل عصير البرتقال بالجزر.

- أردت أن أتعلم التنس.

- أردت أن أربي قطة.

- أنا أمجد.

قالها أمجد وهو يمد يده لتعريف نفسه، فقام الآخر بمد يده أيضًا وقام بتعريف نفسه:-

- وأنا حمزة.

- يبدو من مظهرك أنك نشأت خارج البلاد.

- نعم معك حق.

- هل يمكنني الجلوس قليلًا!.. وما رأيك بأن نصبح صديقين؟..

– ولِمَ لا!... تشرفت بمعرفتك.

– منذ متى وأنتَ خارج البلاد؟

– منذ أن كنت صغيرًا جدًا، لا أتذكر بالتحديد.

– وكيف تجد الحياة هنا، هل هناك أفضل؟

– هناك اختلاف كبير بين البلدين، فهنا وطني وأهلي وملجأي الوحيد، ولكن هناك يوجد بعضًا من النظام غير هنا.

– لا أخفي عليك، لم يعد هناك أحد يطيق الحياة هنا، ولكن هذا وطننا، ويجب ألا نتخلى عنه أبدًا.

تحدثا لبعض الوقت حتى قام هاتف أمجد بالرنين، فقد حضر صديقه الذي كان ينتظره، وما هي إلا ثوانٍ حتى ظهر باهر أمام أمجد، وقام بتقديم باهر وحمزة لبعضهما البعض، ثم همَّ بالانصراف، وقبل أن يرحل قال لحمزة:–

– بما أننا أصبحنا صديقين الآن أريد أن أقوم بدعوتك إلى خطبتي التي ستقام في نهاية الأسبوع القادم!.

– يشرفني الحضور بالطبع، ستجدني هناك إن شاء الله.

ثم رحل أمجد هو وصديقه؛ ليقوما بمناقشة الإجراءات والأشياء التي يجب تجهيزها من أجل الخطبة؛ لتكون في أبهى صورة.

تُمر الأيام، وأمجد قلبه في اشتياق إلى تلك اللحظة التي سيرتبط بها اسمها باسمه، ويقترب خطوة إلى البقاء معها بقية حياته، وها قد جاء اليوم الموعود، الأجواء في حالة مرج في بيت أمجد، كيف لا؟! واليوم ستكون خطبة الابن البكر للعائلة، ولم يكن يتوقع أحد أن يأتي هذا اليوم أبدًا، فقد كان يظن الجميع أنه سيظل طيلة حياته وحيدًا بائسًا لا

تهتم لأمره أي امرأة عدا أمه.

تمت الاستعدادات على أكمل وجه، وتأنق أمجد بطريقة ملفتة لمن حوله، فلم يعتد أحد أن يراه بثياب رسمية مرتبة، وتفوح منه رائحة العطر النفاذة، وشعره المُهندم، وكأنه إنسانًا ولد من جديد، والحقيقة هي أن قلبه قد استيقظ من سباته، كان يحتاج فقط لمن يعطيه اكسير الحياة، وها هي قد فعلتها تلك الفتاة رغم أنها لم تقصد ذلك، ولكن الحوادث تقع دائمًا، ويا لروعة تلك الحادثة التي وقع بها في شباك أعينها! فأنسته من يكون، وصنعت منه شخصًا آخر لا يعرفه أحد، وهنا نرى مدى تأثير الحب، فجعلته أكثر إشراقًا، ورأى الحياة بألوان مختلفة، أحيانًا لا نرى أننا لا نحتاج للتغير، وأن كل شيء على ما يرام، حتى يأتي شخص واحد فيقلب الوضع رأسًا على عقب، ولا تفعل شيئًا سوى أن تتغير مع تلك البهرجة التي تحدث وأنت تشعر بالسعادة.

انتهى من التحضيرات، وذهب لإتمام مراسم الخطبة، وبينما هو في انتظار فتاته إذ بنسيم هادئ يملأ المكان، قلبه ينبض بشدة، أعينه تجوب المكان مثل كاميرات المراقبة، يبحث عن شيء محدد، حتى ظهرت أمامه، فانفرجت سرائره، ورقص قلبه، حتى كاد يخرج من قفصه كطائر ذهب مهاجرًا ليبحث عن نصفه الآخر. أقرب ما يتم وصفها به في أعينه أنها ملاك لا تشوبها شائبة، نجمة ألمعية، لا، بل قمر، وللقمر الفخر للتشبه بها، ساحرة لا تعتق أحدًا من سحر جمالها، صائدة للقلوب، حتمًا ستقع في شباك أعينها. هذه هي المرة الأولى التي تجلس بها بهذا القرب منه، كان يتلعثم في كلامه من شدة توتره، ولم تغادر الابتسامة ثغره طيلة هذه الليلة، انقضت الليلة بخير وهو في قمة سعادته.

حور عين هبطت من النعيم؛ لتجاورني

أغوتني بجمالها، ومثلها لم تلمح عيني

سكنت الفؤاد، وفي فراقها يموت وجداني

٤

– لا أعلم كيف أصوغ هذا، ولكن أعتقد أن خطبتي ستكون قريبة.

صاحت ريم غير مصدقة، وقد فاقت من نعاسها:

– كيف هذا، ومن يكون، ومتى؟؟

– اهدئي قليلًا، سأخبرك بما حدث، منذ عدة أيام وجدت أمي فرحة على غير العادة، وعندما سألتها عن سر سعادتها أخبرتني أنها قد قابلت إحدى صديقاتها القدامى، وأصبحت على اتصال معها مجددًا، ثم وجدتها أمس تخبرني أن صديقتها تلك وأسرتها سيأتون لتناول الغداء، ويقضون اليوم معنا، في البداية لم أعر ذلك اهتمامًا، فقد كنت اعتبرهم ضيوفًا عاديين عندنا، ولكن شعرت أن هناك شيئًا مريبًا، فقد كانت نظرات صديقة أمي غريبة بالنسبة لي، وفي البداية لاحظت أنها تنظر لي باستمرار وتبتسم بغرابة، حاولت أن أُكذِّب نفسي، ولكن لم تنفك حتى تفعل هذا باستمرار، وشعرت بشيء مريب في حديثهم، وكان لها ابن يكبرني بعدة سنوات قليلة، كان خجولًا قليلًا، ولكن أيضًا شعرت بشيء غريب منه، كنت أشعر وكأن هناك مؤامرة تدور حولي وأنا لا أفهم شيئًا؛ عندما رحلوا وجدت أمي تأتي إلى غرفتي، وبعد مقدمة صغيرة وجدتها تسألني عن رأيي في ابن صديقتها، وأخذت تعد لي مميزاته، وبعد محادثة قصيرة لم أستوعب ما يحدث خلالها، فطلبت منها أن تتركني لأفكر قليلًا، ولا أدري ماذا أفعل!

– كيف حدث كل هذا فجأة؟! حسنًا، سآتي إليكِ غدًا ونحاول أن نجد حلًّا سويًّا.

أتت إليها ريم وجلسا بغرفتها، ثم أخبرتها ببعض التفاصيل عنه، فقالت لها ريم:–

– يبدو من حديثك هذا أنه شاب صالح، كما أن والدتك تقول أنه من عائلة ذات سمعة جيدة، أستطيع القول أن هذا الفتى لا يعوض، ومن الصعب أن تجدي مثله مرة

أخرى في هذه الأيام، ولكن، ما هو شعورك؟

– لا أدري حقًّا، فأنا أرى مثلك أنه شاب جيد وفيه من الصفات الحميدة الكثير، ولكن هذه هي المرة الأولى التي يتحدث بها أحد معي بجدية في ذلك الموضوع، كما أني منشغلة بدراستي، وفوق كل ذلك أشعر وكأن هناك مؤامرة تدور من حولي.

– لا تهولي الأمر يا فتاة، من وجهة نظري أن تهدأي قليلًا لبعض الوقت، وفكري بتأني، ثم قرري ما ترينه في مصلحتك.

ظلت الفتاتان تتناقشان لبعض الوقت، ثم رأت ريم أن الوقت سيتأخر ويجب عليها أن تعود للمنزل، فهمَّت بالرحيل، وصاحبتها أيسل حتى خرجت من المنزل، ثم عادت لغرفتها، مازالت الأفكار تتوالى بعقلها لا تتركها بمفردها، حتى كاد يتفتت عقلها من كثرة التفكير، وأخيرًا استسلمت للنوم، فنامت كطفلة صغيرة أرهقها البكاء.

قبل يومين في منزل أيسل...

نظرت الصديقتان لبعضهما البعض بطريقة تعرف كلًّا منهما مغزاها، ثم جذبت والدة أمجد انتباه الفتاة:–

– لقد علمت من والدتك أنكِ بالصف الثالث الثانوي!

– نعم بالفعل، أتمنى من الله التوفيق والالتحاق بكلية الصيدلة، فهي حلمي منذ الطفولة.

– أعانكِ الله يا ابنتي، فهذا الصف ما يسمونه تحديد مسار حياتك القادمة ومصيرها، وهذا يجعل الطالب تحت ضغط كبير.

– لا أحد يعلم أين يكون الخير، كما أن خيوط أقدارنا لا نتحكم بها بصورة كاملة، فدائمًا ما يكون هناك شيء مخفي، حكمة من الله لا نعلمها سوى بعد حين.

- معكِ حق يا ابنتي، أعانكِ الله ووفقك.

بعد أسئلة عديدة استخرجت بها والدة أمجد ما تريد من إجابات، وكأنه تحقيق بمركز الشرطة، انتهت أخيرًا، وساد الصمت قليلًا.

- أيسل!....

لم أسمع بهذا الاسم من قبل، فما معناه؟!

- أيسل هو اسم من أصل يوناني ويعني القمر، قد سُميت به لأن أمي أخبرتني أني كنت شديدة الجمال عند ولادتي، كما أنهم أرادوا أن يكون اسمًا غير متداول لأكون فريدة من نوعي.

كان هذا السؤال الذي قتل الصمت أخيرًا، انتظرته كثيرًا، يبدو أنه من النوع الخجول؛ لم تكن في مثل هذا الوضع من قبل، فلا تدري كيف تسير الأمور، الأصوات من حولها عالية، لا تشعر بالراحة في هذا المجلس، الأعين مصوبة نحوها، هذا يشعرها بالتوتر، كانت تريد البكاء، لا يوجد ما يستدعي لذلك، ولكنها أرادت ذلك وبشدة، تمالكت نفسها وهدأت من روعها، فسكنت قليلًا.

وبعد القليل من الصمت بدأت المياه الراكدة تتحرك، وها هو يبدأ الحديث معها بأشياء عدة تعلمها وتحبها، لا تدري إذا كان يعلم أنها مهتمة بتلك الأشياء أم أنها مجرد صدفة، ولكنها رأت عقله الكبير ومعرفته بالكثير من الأشياء لا يبدو عليه أنه يعلمها، اندمجت معه بالحديث، فزال توترها.

أحاديث كثيرة وضحك وذكريات، كانت الزيارة خفيفة مرحة، لم يشعر أحد بثقلها حتى جاء وقت رحيل الزوار، وكانت البسمة على وجوه الجميع.

***

- أرى أنكِ تشعرين بالملل، ما رأيك بأن نخرج قليلًا؟!..

جذبتها الجملة من شرودها، ثم نظرت أيسل لترى من المتحدث، فوجدت أن أختها هي من تخاطبها، فردت عليها:-

- معكِ حق، الأجواء أصبحت مملة بعض الشيء، لا بأس، فلنخرج قليلًا، ولكن إلى أين سنذهب؟!..

سكتت أختها قليلًا تفكر في رد مناسب لسؤالها ...

- لا أعلم، فلنخرج أولًا ثم نرى إلى أين سيسوقنا القدر.

- حسنًا، سأقوم لأغير ملابسي وأتجهز.

تجهزت الأختان، ثم ذهبا تجولا قليلًا بشوارع المدينة حتى مرَّا بجوار أحد المطاعم، كان هناك شيئًا غريبًا يتوغل بداخل قلب أيسل، لم تكن تلك هذه المرة الأولى التي تشعر بها هكذا، فتذكرت المرات السابقة، وبدأت تنظر حولها كأنها تبحث عن شيء معين، ولكنها لا تعلم ما هو!! كان قلبها كالرادار، كلما اقتربت من ذلك المطعم كلما زاد خفقان قلبها، فقاما بدخوله ليستريحا قليلًا، حتى وقعت عينها على ما تبحث عنه، فتسمرت مكانها للحظات توقف معها الزمن، تسترجع بعض المشاهد من ذاكرتها، ثم جاء صوت منادي:-

- رهف !..

صاحت أخت أيسل بدهشة:-

- خديجة!..

- يا لها من صدفة رائعة، ماذا تفعلين هنا؟

- كانت أختي تشعر بالملل فذهبنا للتمشية قليلًا، ثم مررنا من هنا فقررنا الاستراحة لبعض الوقت.

– يا لها من صدفة، فهذا نفس الأمر، فقد كان أخي يشعر بالملل أيضًا، فرأيت أن آخذه في جولة لأنه لا يعلم الأماكن هنا، فهو لم يأتِ لمصر منذ سنوات.

همت رهف بتعريف أختها لصديقتها وأخيها، ولكنها وصديقتها قد تفاجئا مما حدث.

كانت أيسل فاتحة فمها، وأعينها برزت من الدهشة، حتى قام بالتحدث أخيرًا:–

– أنتِ تلك الفتاة في ذلك اليوم!!

دُهشت هي الأخرى برؤيته في هذا المكان، وردت عليه بلهجة تدل على السخرية..

– نعم، إنها أنا أيها المتحذلق.

فرد هو الآخر بشيء من السخرية:–

– أتمنى أن تكوني قد تعلمتي كيف تعبرين الطريق دون أن تتسببي في موتك أو حادث للطريق.

– نعم، لقد تعلمت، فنحن لا نملك سوى حياة واحدة، ولكن ما الذي تفعله، ألا يجب أن تتجول عند الأرصفة لكي تنقذ الناس أيها البطل؟!

– إن اليوم عطلتي، فحتى الأبطال يحصلون على عطلة.

وخلال ذلك الحديث الساخر بين هذين الاثنين تقف الصديقتان في حيرة مما يحدث، فقالت خديجة:–

– هل تعرفان بعضكما البعض؟!

رد أخوها:

– لقد قابلتها مرة منذ عدة أيام.

فأكملت أيسل:

– في هذه المرة لقد أنقذني، فقد كانت ستذهب حياتي بسبب حادث سير عندما شردت قليلًا أثناء عبوري للطريق، ولكنه جذبني في الوقت المناسب.

– كنت فقط سببًا وضعه الله في ذلك الوقت.

– لم أشكرك كما ينبغي حينها، كما أني لا أعرف اسمك حتى الآن.

وهنا تدخلت خديجة في ذلك الحديث:–

– هذا أخي حمزة (قدمته لهم وهي تشاور عليه)، هذه رهف صديقتي، وهذه أيسل أختها (قالتها وهي تشاور على كل واحدة منهن على حدا).

جلست أيسل وأختها؛ ليتشاركوا جميعم نفس المائدة، كانت في حالة دهشة ساد معها الصمت، أعينها كانت تذهب إليه في الكثير من الأوقات، فهو يثير فضولها، تريد أن تعلم من هذا، كانت في دوامة من الأفكار، حتى كُسر الصمت وجاءها سؤال من خديجة:–

– كيف تبلين في المذاكرة، فهذا الصف الدراسي معروف بصعوبته والضغط الذي يحتويه؟!...

– تسير الأمور على ما يرام بفضل الله.

– وفقكِ الله وأعانكِ يا صغيرتي.

ثم توجهت أيسل بالحديث إلى حمزة:

هل الدراسة بالخارج أفضل من هنا؟

– لا أدري ما تقصدين، ولكن لم أجرب الدراسة هنا قط.

– إن حلمي هو الذهاب للدراسة بالخارج بإحدى الجامعات العالمية.

– إذا قام أحد بفعل هذا من قبل فيمكنك أنتِ أيضًا، لا يوجد شيء اسمه مستحيل.

وما الذي تريدين دراسته؟

– أريد دراسة علم الصيدلة، هذا حلمي منذ صغري.

– إذًا اجتهدي وسيتحقق حلمك بإذن الله.

ثم استرسل في الحديث وسألها:-

– هل تحبين الشعر؟

– لا أعلم، ولكن لست شغوفة به، قد أقرأ بعض الأبيات صدفة وأعجب بها، وأنت؟

– أنا شغوف به، أقرأه وفي بعض الأوقات القليلة أكتبه، هذا هو الشيء الذي كان يجعلني مرتبطًا بأصولي، فليس هناك لغة أجمل من اللغة العربية في فصاحتها.

كانت الصديقتان في حالة تعجب من الانسجام بين هذان الاثنين، وبينما هم منسجمون في حديثهم جائهم الطعام.

***

لم تتحدث معها والدتها بشأن ذلك الشاب بعد الزيارة سوى أنها سألتها عن رأيها، وأخبرتها أن صديقتها بانتظار ردها، ثم تركتها.

أيام تليها أيام تظل مستيقظة يصاحبها الأرق، يحرسان الليل سويًّا، تفكر في ما حدث في الأيام الخالية، وكيف تسارعت وتيرة الأحداث بهذا الشكل بعد أن كانت هادئة مستقرة .....

هل تقبل بهذا الشاب الذي اختارته أمها؟!.....

هل ستكون تجربة ناجحة؟!....

هل حقًّا ستكون على قدر تلك المسئولية!....

لقد بدا من زيارتهم أنه شخص مهذب حقًّا، ولكن هل سأتوافق معه بالفعل؟!.....

وماذا عن دراستي وحلمي! هل هذه هي النهاية؟!....

أخذت نفسًا عميقًا ثم هدأت قليلًا، وذهبت إلى أمها التي كانت جالسة في حالة هدوء ممسكة بكتاب ما، وبجوارها كوب القهوة الخاص بها، وصوت أم كلثوم في الخلفية يضفي بعض الجمال لجلستها، وقفت أمامها، وطالبت بمحادثتها قليلًا، فانتبهت لها الأم:-

- ماذا هناك يا صغيرتي؟

- أريد التحدث معكِ بخصوص أمر ذلك الشاب الذي تريدين خطبتي إليه.

جعلت الأم كل حواسها وانتباهها إليها، ونظرت لها نظرة مفادها أن تكمل حديثها، فأكملت أيسل:-

- لقد كنت أفكر في ذلك الأمر، ووجدت أن جميعكم موافقون بشدة، واستحسنتم الشاب، فرأيت أنه لا بأس، كما أن لديكم خبرة وعلم بذلك الأمر أفضل مني، وتريدون مصلحتي، ولكن هناك بعض الأمور استوقفتني ...

أنا الآن في سن التاسعة عشر، ألست صغيرة لهذا الأمر الآن!

ودراستي.. تعلمين أني أريد أن أستمر بها وأن أحقق حلمي!

كما أني لست متأكدة يقينًا أنه مناسب لي!

نظرت لها الأم وابتسمت ابتسامة حانية، فهي ترى ابنتها تكبر أمامها ويكون لها تفكيرها المستقل، تنهدت الأم، ثم بدأت تجاوب على ما يجول بخاطر صغيرتها:-

- ألم تلاحظي شيئًا يا عزيزتي، أنا ووالدك الفرق بيننا حوالي أربعة سنوات، وإذا بحثتِ بين الأزواج ستجدين أن هناك فارق بالسن بينهم قد يصل إلى ستة سنوات، وفي

بعض الأحيان يقل ويكون عامًا أو عامين، وهذا لأن الفتيات يكبرن أسرع من الفتيان، كما أنكِ قد اقتربتِ من عامكِ العشرين.

أما بالنسبة لدراستك فيمكننا أن نضع إكمال دراستك أحد الشروط، وتكملينها كما تريدين، كما أنكِ ستجدين من يشاركك ويدعمك باستمرار.

أما بالنسبة إذا كان مناسبًا لكِ أم لا يا صغيرتي فسيكون هناك فترة للخطبة لتعرفينه جيدًا، وتتأكدين إذا كان مناسبًا أم لا، لكن نحن وافقنا مبدأيًّا لأن رسول الله قال إن جائكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، وهو شاب جيد من بيت طيب، ولكن تذكري أن القرار بيدك أولًا وأخرًا، لا نستطيع أن نجبرك على شيء.

نعم، أعلم أن الأمر لم يأتِ بشكل لطيف، وكان مفاجئًا لكِ، اعتذر لكِ يا سويداء قلبي عن هذا التصرف، والأمر لكِ في النهاية.

استمعت أيسل إلى كلام والدتها وهدأت الرياح الهوجاء بعقلها، واستقرت روحها قليلًا، وقالت:-

- حسنًا يا أمي، أعتقد الآن أننا قد وصلنا لحل لما يجول بخاطري، موافقة، يمكنك أخذ الإجراءات اللازمة.

- بارك الله لكِ يا صغيرتي ورزقك بمن يقر عينكِ، ووفقك في كل ما تسعين إليه، وسلمك ربي من كل شر.

أنهت الأم حديثها مع ابتسامة منفرجة على ثغرها، ثم احتضنت ابنتها.

***

- هل تتتبعني؟

رد عليها بابتسامة ساخرة:

– ولِمَ سأفعل هذا، هل أنتِ من المشاهير أم ماذا؟!..

– لماذا أجدك أينما ذهبت إذًا؟!...

– لأن خيوط قدرنا قد تلاحمت لنلتقي في تلك الأماكن التي رأينا بعضنا البعض بها، ما نحن إلا دُمى تحركنا خيوط القدر، تسوقنا إلى ما أراده الله لنا.

– ولكن الإنسان مخير وليس مسير.

– حسنًا إذًا، اختاري عائلتك واختاري ألا تقابليني.

هكذا بدأ حديثهما الساخر بين أيسل وحمزة، وكأنهما معتادان على ذلك، وكأنه أحد الطقوس عندما يلتقيان، فقد كانت تتجول قليلًا وقررت الجلوس أمام البحر لبعض الوقت، فصادف أنها رأته، فلم تشعر بقدمها وهي تذهب إليه، وقلبها الذي لم يهدأ لا تدري ما به، وما بال ذلك الشعور الذي يأتي كل فترة.

حل الصمت قليلًا، واقتنعت بكلامه، ثم رأت مسودته الصغيرة بجواره، وطلبت الاطلاع عليها.. تردد قليلًا في البداية ثم سمح لها بتفحصها، كان يبدو عليها ملامح الإعجاب مما هو مكتوب، فقد وجدت من أبيات الشعر ما أذهلها، ومن النثر ما اخترق قلبها، كانت تقرأ وتلمس قلبها الكلمات، فتذهب إلى عالم آخر تنسجه الكلمات التي أمامها، سألته لمن يكتب تلك الكلمات؟ فقد شعرت بمدى عمقها وامتلائها بالمشاعر، ولكنه امتنع عن الإجابة، واكتفى فقط بقوله أنها ليست لأحد، ثم تحدثا لبعض الوقت عن أمور شتى، وكانت تحدث مناقشات حادة في بعض الأوقات، ولكن سرعان ما تهدأ الأمور.

انتهت المحادثة وقد همت بالرحيل، فسأل حمزة بصوت متردد لاحظت أنه يشوبه القلق والحزن:-

– هل لنا من لقاء مجددًا؟..

– لا أدري، فأنا لا أعلم الغيب، وإذا كانت خيوط قدرنا قد تلاقت في مكان وزمان آخرين فبالتأكيد لنا لقاء، أما الآن فهو وقت الوداع.

لم تقل له أنه سيتم خطبتها، وأنهما لن يجتمعا مرة أخرى، همَّت بالرحيل، فسمعته يقول بصوت خافت لا تدري كيف لاحظته (أقدر على الوداع ولا أحبه لا ترحلي أرجوكِ)، ولكنه سرعان ما تدارك الأمر، وقام بتوديعها، ثم رحل كل منهما إلى طريقه.

لا تدري ما حدث لها، أصابتها جملته في مقتل اهتز لها كيانها، وكأن هناك صاعقة برقية نالت منها، كانت تسير شاردة، هناك شيء ما يحدث لها بداخلها وخاصة قلبها.

أحيانًا نقوم بفعل أشياء لا نفهمها، وكأن هناك أشخاص آخرون من قاموا بتلك الأشياء أو نتخذ قرارات دون وعي، كما أننا أحيانًا لا ندرك حقيقة شعورنا، فنصبح بداخل دوامة لا ندري كيف نتصرف، ولا نعلم ما يجب فعله.

***

ها هو قد حضر أمجد برفقة أهله للاتفاق على الأمور الرسمية، وتحديد موعد الخِطبة، وما أن أعلنوا عن موعدها حتى امتلأ البيت هرج ومرج، الابتسامة تزين جميع الوجوه والمباركات توالت على العروسين.

حملت هاتفها بعد أن سكنت في غرفتها في نهاية اليوم

– هل خلدتي إلى النوم؟

– كيف أستطيع النوم في ليلة كهذه!

كنت أنتظرك حتى تخبريني ما حدث.

– لقد تم الاتفاق على كل شيء، وتم تحديد موعد الخِطبة.

– مُبارك يا صديقتي العزيزة، جعله الله لكِ الزوج الصالح، ولكن ما بكِ؟ هل أنتِ

بخير! صوتك لا يشي أنكِ على ما يرام!؟..

- لست أدري، ولكن أشعر بالإرهاق قليلًا.

- لابد أنكِ قد أرهقتي نفسك اليوم، فلتذهبي للنوم لكي ترتاحي.

- سأفعل ذلك، تصبحين على خير، إلى اللقاء.

الجميع يتأنق، غطَّى البيت حالة من السعادة إلا أيسل، الشخص الوحيد الذي لم يبدو عليه أي شيء، كانت ابتسامتها مصطنعة أمام الجميع، وبينها وبين نفسها كان وجهها جامدًا بدون أي تعبيرات، كانت شاردة أغلب الوقت، ولكنها كانت خاطفة للأنظار، ذلك الجمال الهاديء يسحر الأعين التي تسقط عليه، أميرة جمالها لا يأتي بالخيال، تطل بفستانها الأسود المطرز ببعض الأشياء اللامعة؛ ليكون هو السماء ليلًا بنجومها، وتكون هي القمر الذي يزين تلك السماء.

جميع الأعين مصوبة نحوها في حالة انبهار ودهشة وغبطة، قابلت شريكها في تلك الليلة، كان يرتدي بذلة كلاسيكية تتماشي مع لون فستانها، دهشت من أناقته وشعرت بحضوره الرائع، نظرت له لبضع ثوانٍ، ثم أشاحت بنظرها خجلًا.

كان كل شيء يسير على ما يرام، حتى حدث ما لم يكن بالحسبان.....

مشاعر مختلطة

١

تشهد لنا السيوف بصلابتنا ولا تدري

أن وراء تلك الجبال قلوبًا تذوب من لقياك.

لم أجد فرقًا بين الموت أو الحياة

حتى رأيت النعيم بابتسامة على محياك.

أهديتني العشق، ثم بسيف الفراق تقتلني

تالله ما فعل بي الأعداء فعل عيناك.

***

في مكان آخر على ظهر ذلك الكوكب، وفي بيتٍ يقع داخل حدود دولة إنجلترا، في غرفتها تستلقي جيسيكا بعد يوم طويل، تمسك هاتفها تتفقده، تنتظر إخطارًا محددًا بأنه أخيرًا قد قام بالرد عليها ومخاطبًتها، ولكنه لم يظهر أي نشاط منذ مدة، تبدو للعوام أنها قصيرة ولكنها قرون ودهور بالنسبة لها، اعتلى الحزن قلبها، وسيطرت خيبة الأمل عليها، هل يتجاهلها عمدًا !؟... هل قد نسي أمرها!؟... أم كانت تتمنى ألا يحدث هذا حقًّا، وهو أنه قد وجد من سرقت قلبه، وقامت بسحره، وفعلت ما لم تستطع هي فعله، فأصبحت وكأنها لم تكن!؟...

بالرغم أنها قد أوضحت حبها له في العديد من المواقف وبالعديد من الطرق ولكنه أبى وأعرض، ظلًّا على اتصال بعدها، ولكنها أصبحت تراقبه من بعيد، فكانت تريد الحفاظ على علاقتهما، فلا تخسر كل شيء، ومن ناحية أخرى لا تستطيع التحكم بما احتل قلبها.

تركت هاتفها لتذهب للنوم، ثم سمعت صوت استلام رسالة، نظرت بفقدان شغف.. لم تكن تريد أن تحدِّث أحدًا الآن، كما أنها قد فقدت الأمل من أن يقوم بمخاطبتها، ولكنها همَّت لترى المرسل ليس أكثر، ومنذ أن وقعت عينها على المرسل انفرجت ابتسامة كبيرة على محيَّاها، وتنهدت.. أخيرًا قد قام بالرد عليها معتذرًا عن ذلك التجاهل الغير مقصود، وأخبرها أنه سيعود قريبًا جدًّا، كانت تريد أن تقفز من الفرح.. لا تصدق أعينها.. تعيد الرسالة مرة تلو أخرى.. كانت تصرخ من الفرح، لأول مرة منذ أيام تنام وهي سعيدة.

***

قامت خديجة بتعريف صديقتها (رهف) وأختها لحمزة، وقامت بتعريف حمزة لهما، ثم جلسوا ليتشاركوا الطاولة، وليتبادلوا الحديث، ولقد همس حمزة لأخته أن تذكره بأنه يريد أن يخبرها شيئًا عندما يعودا إلى المنزل.

خلال تلك الجلسة المثيرة للاهتمام لاحظت خديجة أن أعين الفتاة كانت تتجه إلى حمزة كثيرًا مع وجود تلك اللمعة التي تعرفها جيدًا، كما أنها لاحظت نفس الشيء عند حمزة أيضًا ناحيتها، فتيقنت من شعورها، ولكنها انتظرت لترى إلى ما ستؤول له الأمور، فهي تعلم أمرًا لا يعلمه حمزة، ولا تدري ما الذي تفكر به أيسل.

انتهت الجلسة وأعرب حمزة عن سعادته بلقاء أيسل وأختها، كما أنه أردف متمنيًا أن تتكرر تلك الجلسة مرات عديدة لاحقًا، وتبادل الابتسامات معها في نهاية اللقاء ثم رحل هو وأخته.

عندما عادا إلى المنزل دخل حمزة إلى غرفته؛ ليرتاح قليلًا، وذهبت خديجة لإنهاء بعض الأشياء، ثم ذهبت إلى حمزة فور انتهائها، عندما وصلت لغرفة حمزة كان باب الغرفة مفتوحًا، وهو جالسًا عند الشرفة شاردًا، وعلى ثغره ابتسامة خفيفة، فدلفت الغرفة بعد أن أعلنت عن حضورها، وانتبه لها أخوها، ثم استهلت مسامرتهما قائلة:-

– لقد أخبرتني أنك تريد أن تقول لي شيئًا مهمًا، ولي آذان صاغية.

– لا أدري ما أقول حقًّا، ولا كيف أن أطلق عبارات سليمة مرتبة، ولكنك كنتِ على حق.

ردت عليه بنوع من المزاح:–

– أنا دائمًا على حق، لا شيء جديد.

– في تلك الليلة في الحديقة أعتقد أن تفسيرك قد أصبح حقيقة.

– إنها أيسل!..

قالتها خديجة دون تردد مترقبة ردة فعله، ساد الصمت قليلًا، فأصبح ذلك الاسم له وقع خاص على أذنه ما أن يتم لفظه حتى يهاجر إلى عالم العاشقين مفتشًا عن ملامحها بين شوارع عقله وارتجف قلبه، حتى لملم شتات نفسه، وأجاب بعد تنهيدة:–

– نعم.

– إن أمكن أريد معرفة كل شيء من البداية!..

– بدأ الأمر بذلك الحلم الذي قد قصصته عليكِ من قبل.

وبدأ يسترجع ما حدث به، وكانت خديجة تستمع له وتنظر له بدهشة، وكأنها تتابع فيلمًا وتستمتع به، ثم أشارت له ليكمل قصته فاستكمل:–

– في اليوم التالي من ذلك الحلم قد ذهبت إلى الشاطئ الذي نصحتني به، فوجدت أن ذلك الشعور الذي زار قلبي من قبل وأنا نائم قد جاء مرة أخري هناك، وإن لم يستمر كثيرًا، ثم وفي إحدى المرات كنت أسير متجولًا في المدينة بدأ ذلك الشعور يأتي مرة أخرى، وكان يتزايد بوتيرة ثابتة، حتى رأيتها أمامي وأنقذتها من ذلك الحادث، كانت تلك المرة الأولى التي أراها فيها، وقد شعرت أني أعرفها منذ سنوات، وقد ارتحت لها عند رؤيتها.

كان يروي قصته والأحداث تمر بعقله واحدة تلو الأخرى، وصورتها لا تزول من أمام عينيه، ثم سكت قليلًا، وكانت خديجة بانتظاره ليكمل، أطلق تنهيدة ثم اكمل:-

- ثم كان آخر مشهد اليوم عندما رأيتها مع أختها، فقد كنت أشعر بوجودها، لم أكن أعلم أنها هي، ولكن كنت أشعر باقترابها، حتى ظهرت أمامي فجأة، وأصابت سهام أعينها قلبي، ولم أشعر بنفسي حتى وجدتني مبتسمًا وسعيدًا للغاية لرؤيتها؛ يبدو أنني وقعت في شباك الحب يا أختاه.

ضحكت خديجة ضحكة خفيفة مازحة معه، فهي تشعر وكأنها تشاهد أحد الأفلام الدرامية، ثم نظرت له وسألته:-

- هل تريد مني أن أحادثها لك وأمهد لك الطريق؟!..

- لا، ليس الآن، لست متأكدًا أنني أستطيع فعل أي شيء يخص هذا الموضوع الآن، ولست متأكدًا مما أشعر.

- حسنًا، كما تشاء، وأعانك الله على ما ستمر به في الأيام القادمة أيها المستهام.

انتهى حديث الأخوين، ثم رحلت خديجة وتركت حمزة سابح في خياله، لا يشغله سوى تلك الفتاة التي أصابته بسهام حبها، وقامت بدكِّ حصون قلبه، فهوى أمامها، لا حيلة له أمام أعينها، وسلَّم لها نفسه، فأصبحت هي شغله الشاغل، نظر حمزة للسماء كعادته باحثًا عن نجمته، ولكنه لم يجدها هذه الليلة أيضًا، ظل مهمومًا لغياب مؤنسته ومصدر إلهام كلماته، ولكنه بعد ثوانٍ قليلة لاحظ شيئًا مهمًا، وهو أن نجمته التي في السماء قد اختفت عندما قابل أيسل، ويبدو أنه قد حصل على هدية وكنز قيم، وأنه كان يتمنى نجمة، وها هو سينال القمر، وهي حقًّا بدر في ليلة منتصف الشهر، تجذب أعينك فتظل معلقًا بها.

بعد فترة قليلة ذهب لمكانه المفضل أمام البحر، لقد شهد هذا البحر ولادة شيء جديد

بداخله، واكتشافه شعورًا مختلفًا، كما أنه كان يستمع له دون ملل، ويؤنسه وهو يراقبه، فيجعله يشعر بالراحة.

***

(أقدر على الوداع ولا أحبه، لا ترحلي أرجوكِ)

هكذا قال عندما همَّت أيسل بالرحيل بعدما آنسته قليلًا عندما وجدته جالسًا بمكانه المفضل، ولا يدري كيف أطلق لسانه تلك الكلمات، بالرغم أنها كانت بصوت خافت، ولكنه قلق من أن تكون قد سمعته، فحاول تدارك الأمر، ثم ودَّعها وذهبت في طريقها.

في كل مرة يحادثها شيء بداخله يتلون بلونها، يزداد الدوبامين، فيصبح في قمة السعادة، ويخفق قلبه بسرعة لسعادته، وكأنه يتراقص على أنغام حبها، كان يشعر بالانتماء لها شيئًا فشيئًا، ولكن كان يشعر بنغصة بقلبه كأن هناك شيء سيحدث لن تُحمد عقباه.

٢

أمل، خيبة، فرحة، حزن، عشق، أدمع، أعين محبة متلاقية، وصدمة؛ هكذا يمكننا تلخيص الأجواء بهذه الخطبة.

كان أمجد أكثر الأشخاص سعادة في هذه الليلة، كيف لا؟! وها هي حوريته تجاوره، أما بالنسبة لوالدته فكانت في قمة سعادتها، شعرت وكأنها كانت تحمل همًّا ثقيلًا، وها هو انزاح عن قلبها وهي ترى ولدها العزيز يأخذ خطواته لتأسيس أسرته، كانت تنظر له دائمًا بأعين دامعة حانية.

كان الجميع سعيد عدا اثنين فقط، ولا يدري أحد ما خلف تلك الأقنعة المعتلية الوجوه، تبدو لك مبتسمة سعيدة ولا يدري أحد ما يدور بالكواليس أسفلها.

***

تسيرين غير مبالية ورماح أعينك تختضبُ

أرواح تتهاوى أمامك ولم تسلم من رماحك القلوبُ

وصل حمزة للمكان المراد، أصوات الأغاني تتعالى، توغل بين الحشد المجتمع يريد الوصول لشخص معين، ظل يراوغ الحشد شخصًا تلو الآخر، حتى وصل لمبتغاه، وليته لم يصل!!

تسمَّر بمكانه.. أنامله ترتعش.. لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة.. قلبه ينتفض وكأن هناك شتاءً قاسيًا حلَّ به.. مشاعر هائجة تجتاح قلبه.. يود لو أنه كان إعصارًا ليخرب كل ما يحدث حوله؛ لأنه لا يريد تصديقه، ولكن هذا هو الواقع.

قد ترى ذلك مبالغة لمشاعر تظن أنها لم تكتمل بعد، ولكن، تذكر أن القلوب ليست

بأيدينا، فقد نحب أشخاصًا حبًّا جمًّا من المرة الأولى التي نراهم بها، وقد نكره أشخاصًا آخرين كرهًا عاميًا من المرة الأولى أيضًا.

تمالك حمزة نفسه وسيطر علي ردة فعله، سُحر بها عندما رآها تشبه تلك الصورة التي كانت تأتيه بمنامه، أو هكذا قد نسج له عقله من المخيلات، قلبه يتعلق أكثر فأكثر، احتقن وجهه وكادت أن تفر دمعة من كهفها، تمالك نفسه واعتدل في هيئته، وتقدم بخطوات بطيئة يشوبها الحزن والوهن، لا تقدر قدمه علي حمله، لا يقدر على رفع وجهه، فلا يريد لأحد أن يلاحظ ما يعتليه من نظرات وأدمع.

اصطنع ابتسامة على وجهه، فهو ماهر في إخفاء ما بداخله من مشاعر، ثم تقدم نحو أمجد فاستقبله بالأحضان مهنئًا:

– مُبارك لك يا صديقي، تمم لك الله على خير ووفقك في ما هو قادم.

– شكرًا يا حمزة، بارك الله لك، أتمنى أن تجد أنت أيضًا شريكة حياتك المستقبلية وتقر عينك.

بلا ضغينة ابتسم حمزة سخرية مما قاله أمجد، لا يدري أنه قد حصل على مبتغاه دون أن يعلم، من كان يتوقع أن يحدث كل ذلك، يبدو وكأنها حكاية خيالية تغزل خيوطها في أحد الأفلام، ولكن هذا ما حدث بالفعل، قد تكون الأشياء أمامك وتريدها وتشعر بأنها بين يديك كاملة، ولكن، في لحظة لا تدركها تجد أن كل ذلك استحال إلى رماد، كل ذلك كان سرابًا، فتقف خالي الوفاض، لا تدري على ما قد سعيت ولا بأي شيء قد حلمت.

نظر لأيسل وقلبه ينتفض وضاق صدره، ثم بارك لها بابتسامة مصطنعة بالطبع، وبداخله قلبٌ يبكي مخاطبًا إياها بالأعين دون أن يصدر صوتًا تسمعه، فيقول لها معاتبًا:

– لِمَ لَمْ تخبريني؟ لِمَ أعطيتني الأمل؟ لِمَ فعلتِ بي ذلك؟ هل تُعجبك دموعي تلك!؟..، أم تتلذذين برؤية الشَخص الوحيد الذيَ اهتميت أن أكون معه قد هرب من يدي؟!!

وها أنا واقفٌ أمامه ليس بيدي حيلة سوى الابتسام في وجهه، لا يحق لي محادثته، ولا أن أطالعه، فقط أقف من بعيد أراقبه وهو يرحل دون أي مقدمات، يترك خلفه أعاصيرًا ذاريات تجتاح قلبي، ويسدل الحزن ستائره على قلبي ويغلفه، فلا يقربه فرح.

أدير ظهري عائدًا إلى ذلك المكان القصي الذي أتيت منه، أعود بخفَّي حُنين، مثقلًا بما يعتمر قلبي، مثخنًا بالجراح من معركة خسرتها قبل أن أخوضها، هنا وُضع الشاهد لقلبي، ولم تتم مراسم الدفن.

كان كل ذلك أعاصير تدور بداخله، تدمر كل ما يقابلها، لم ينبس ببنت شفة، ثم استأذن للذهاب ورحل، تاركًا حلمًا بخلفه لا يريد الالتفات له مرة أخرى.

التف ليرحل، وبينما هو في طريقه سمع اسمه يُنادى بصوت أُنثوي، ويدٌ توضع على كتفه لإيقافه، التفت ليرى من أوقفه فوجدها أخته خديجة، لا يدري ما يحدث حوله، الأحداث تتسارع بشكل مخيف، يكاد عقله أن يُجَنَّ، أشياء لم تكن في باله تحدث، لا يدري ما هو التصرف الصحيح الآن، نظرت أخته لعينيه تعلم تمامًا ما تقول تلك الأعين، تريد العبرات أن تفر لتنهمر على خديه، ولكنه يأبى أن يظهر بذلك الشكل الضعيف وسط ذلك الحشد حتى وإن لم يعرفه أحد.

أخذته خديجة إلى مكان نائي عن الازدحام؛ ليستطيعا التحدث، وعندما جلسا:-

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

انتظر ثوانٍ يلملم ما تبقى من فتات عقله الذي لا يستطيع استيعاب ما يحدث حتى الآن؛ ليقول لها:

- كان هذا هو صديقي الجديد الذي دعاني إلى خطبته، لم أكن أعلم بالطبع من العروس.

أنهى جملته وساد الصمت قليلًا، تنهد ثم أكمل بصوت هيمن عليه الحزن:

– يا ليتني لم أعرفه ولم أعرفها، يا ليتني لم آتِ إلى مصر، منذ أن أتيت انقلب كل شيء، تلك المشاعر لم تزُرني من قبل، لقد كنت أعيش بسلام، لم أكن أهتم بوجود أحد في حياتي، والآن قلبي مفطور من تلك الفتاة، لقد كنت صلبًا كالجليد، باردًا لا تتحرك مني شعرة، أما الآن فلا أقوى حتى على الحراك، لا تستطيع قدماي أن تحملاني، لم أرها أو أجاورها مدة طويلة، ولكن قلبي قد تعلق بها، لا أدري لِمَ كل هذا؟!

ولِمَ لَمْ تخبريني!.. لقد كنتِ تعلمين كل شيء، لِمَ لَمْ تعلميني؟!... لِمَ يحدث كل ذلك؟!

نظر لأخته نظرة معاتبة وحزينة، ثم اجهش في بكاء مكتوم، ثم أخفى وجهه بين كفيه.

دمعت عينَي خديجة لتشارك أخيها معاناته، ثم احتضنته وقالت له:–

– ليس الأمر بأنني لم أُرد إخبارك، بل لم أعلم كيف أخبرك، كما أني لم أكن أعلم بأنك ستأتي هنا ويحدث كل ذلك.... آسفة!

ثم بقيا على حالهما مدة من الزمن، خديجة من كانت مع حمزة طيلة حياته تشاركه كل شيء، تحن عليه وتهتم به، كانت في حالة من الحزن لا يمكن وصفها.

آه ثم آه من قهر الرجال عندما يتم كسر قلوبهم، لا شيء في هذا العالم يستطيع مداواته أبدًا.

***

من بين الحشود كانت هناك أعين تحاول جاهدة أن تمنع السيل من الانجراف، كانت ريم بجوار صديقتها المقربة، كيف لا؟، وهذا يوم فرحٍ وسرور لها .

نعود بالزمن قليلًا، عندما استيقظت ريم على صوت رنين هاتفها، فوجدت على الجانب الآخر صوت أيسل كما لم تعتد عليه من قبل، كان يشوبه القلق والتوتر، وانتهى الحديث آن ذاك على زيارة في بيت أيسل لمناقشة ما الذي يجب أن يحدث.

ذهبت ريم إلى بيت أيسل للحديث عن ذلك الشاب، وكيف جرى الأمر، وفي اللحظة التي سمعت بها ريم اسمه انتفض قلبها، وشحب وجهها، وبردت أناملها وتسمرت، طلبت من أيسل أن تريها صورته، فما أن وقعت أعينها عليه حتى وقعت بها صدمة كمطرقة أنزلت بأسها على رأسها، نعم إنه هو أمجد، ذلك الشاب الذي كانت تراقبه منذ مدة بعدما انجذبت له.

صمتت ثوانٍ تحاول استيعاب ذلك الموقف، تعجبت أيسل من ذلك الصمت، فسألتها:-

- ماذا حدث يا فتاة لِمَ أنتِ صامتة هكذا؟!..

انتبهت ريم أنها قد شردت لعالم آخر، فردت عليها بطريقة دعابية:-

- لا يوجد شيء، كنت فقط أقوم بتحليله من هيئة ملابسه وملامحه، لعلنا نصل إلى شيء ما.

- وما الذي توصلتِ إليه أيتها المتحرية؟!

- يبدو أنه شابٌ جيد بالفعل، لا يبدو من مظهره أنه يشبه الآخرين من جيله، كما أن ما أخبرتني به يدل على أنه شخصٌ صالح، أرى أنه يستحق المحاولة وإعطائه فرصة.

- سأفكر قليلًا، ونسأل الله أن يقدم ما فيه الخير.

عادت ريم إلى بيتها، واعتكفت في غرفتها منعزلة عن العالم بما فيه، تريد أن تبكي بشدة سائلة نفسها لِمَ يحدث هذا؟!

يا لسخرية القدر.. عندما تريد شيئًا بشدة ويذهب إلى شخص آخر لمجرد أن هذا نصيبه وقدره، بما أن الأشياء ليست ملكنا من البداية لماذا وُلد بداخلنا شعور التعلق اتجاهها، لِمَ كُتب علينا تذوق تلك المرارة.. لكل شيء حكمة، ولكن لِمَ يجب أن نُعذَّب هكذا؟!

لم يهدأ عقلها، وهمَّت شياطينها بإغوائها إلى تخريب تلك الخطبة، ولكنها سرعان ما عادت إلى رشدها، فتلك صديقتها المقربة لم ترَ منها أي سوء، كما أن أمجد ليست لها علاقة به فعليًا، فبالكاد هو يعلم أنها على قيد الحياة، ارتدت ثوب الرضا بأنه ليس نصيبها، وأسفل ذلك الثوب يوجد حزن كبير يملأ القلب.

قامت من مكانها الذي أصبح شاهدًا على واحدة من أكبر انكساراتها، ثم ذهبت لتصلي لله؛ ليرتاح قلبها وتهدأ روحها، فما لها غيره الآن، ومن أفضل منه تلجأ إليه في محنتها.

في يوم ما جاءها النبأ العاجل، وهو أنه تم الاتفاق بين عائلتي أيسل وأمجد على كل شيء، وعليها أن تذهب لتساعد صديقتها في يومها الموعود.

ذهبت مبكرًا لتقوم بالمساعدة في التجهيزات اللازمة، ومساعدة صديقتها في ارتدائها الفستان، ووضع بعض مساحيق التجميل الخفيفة، والتقاط بعض الصور للذكرى.

بعدما تجهزوا جميعًا وقد حضر أخيرًا، وقعت عينها عليه، أرادت أن تركض إليه مسرعة، لم تشح بنظرها عنه لمدة طويلة حتى لاحظت ذلك، فقامت بالنظر بعيدًا، كانت تتمنى أن تكون هي من تضع الخاتم، كان قلبها يدق كناقوس يدوي صوته بحجره يجعلها لا تستطيع الوقوف على قدمها المرتعشة، وأصبح عقلها شاردًا.

ذهبت إلى الحمام تحاول أن تلملم نفسها وتتحلى بالثبات، نظرت للمرآة وقالت لنفسها:

(هل ستجعلين شيئًا كهذا يؤثر بكِ، تحلي بالشجاعة واقبلي بقدرك، صديقتكِ بحاجة إليكِ، يجب أن تكوني بجوارها حالًا).

أخذت نفسًا عميقًا.... تنهيدة، ثم ذهبت إلى حيث يجب أن تكون.

كانت إطلالتها لها سحر من نوع خاص، وهالة حضورها مميزة تلفت الأنظار،

ملامحها البسيطة وبشرتها الفاتحة وعينها التي تميل إلى درجة البني الفاتح مع امتزاجها بفستانها الأزرق وكأنه بحر يبتلعك في أعماقه، ولكنك تحب أن تغرق به، تشعر كأنك تنظر إلى ملاك، وتشعر بشيء لطيف يتخلل قلبك.

دارت مشاعرها الحزينة بغارٍ متوارٍ عن الأنظار حتى أنهت الليلة بخير، ثم عادت إلى غرفتها، أرادت النوم بشدة، ولكن سرعان ما هجمت عليها مشاعرها الحزينة، واجهشت بالبكاء، تكحلت جفونها من كثرة الدموع وبكائها المستمر، لم تجعل أحد يلاحظ ذلك الحزن، فلا تريد أن يفتضح ذلك الأمر.

سهرت لساعات طويلة يشوبها الحزن والتفكير القاتل حتى خارت قواها، وجاء النوم مغلقًا أعينها؛ لتغط في نوم عميق.

بينما هي نائمة كان يزورها بعض الأحلام، كانت ترى أمجد أمامها ويقترب منها رويدًا رويدًا حتى اصبح قاب قوسين أو أدنى، كانت تشعر بسعادة عارمة، ثم فجأة تظهر أيسل لتقوم بسحبه من ذراعه وتنظر لها وتخبرها:-

- لن تحصلي عليه أبدًا ولا حتى في أحلامك.

تحول ذلك الحلم إلى كابوس، ففزعت من النوم وهي تصرخ باسم أمجد، ثم بكت بحرقة بالغة، ظلت على حالها مدة من الزمن لا تدري ما مدتها ولكنها شعرت وكأنها أعوام، عقلها لا يرحمها والتفكير يفتك بها، لا ترى أمامها سوى أمجد وهو يلبس أيسل خاتمها وتتمنى لو كانت هي.

***

كان كل شيء على ما يرام أو هكذا يبدو، فمن داخلها هناك شعورٌ لا يتناسب مع ما يحدث الآن، ولكنها لا تفهم ماهيته.

كانت تستقبل التهاني من الناس المزدحمة حولها حتى دق جرس الإنذار الذي باتت

تعرفه عن ظهر قلب، بدأ قلبها بالخفقان دون توقف، تمنت لو باستطاعتها قتله حتى يهدأ.

لحظات حتى ظهر حمزة أمامها، اتسعت عيناها، قلبها يزداد نبضه بشدة، أناملها ترتعش كما لم يحدث من قبل، نظرت إليه لم تنبس ببنت شفة، نظر إليها فارتبكت، لِمَ يحدث كل هذا؟!

بارك لها فشكرته، كلمات مقتضبة، ولكن القلوب تحمل الكثير حتى وإن كان هناك غفلة من صاحبه، ولكن يظل القلب هو منبع المشاعر، ينتظر فقط الوقت المناسب حتى يخرج ما بجعبته، سمعته يستأذن للرحيل كانت تريد أن تقول له :

(انتظر.. سأشرح لك كل شيء، لقد سمعت ما قلته في آخر لقاء بيننا، لا أدري لماذا؟! ولكن لا أريدك أن ترحل، لا تهاجمني بتلك الأعين المعاتبة، أعتذر لك.. لا أدري ما يحدث).

أو هكذا أراد قلبها أن يخرج عن صمته، ولكن بتحكيم العقل تم إزالة كل تلك الكلمات بممحاة.

أصبحت الشيء ونقيضه، وعندما يتواجدان في آن واحد فذلك الشخص هالك لا محالة إلا إذا استفاق محددًا موقفه، ولكن ذلك الكائن الذي يسمى إنسانًا لا يوجد ما يستطيع تفسيره، وتلك المشاعر التي لا يعلم أحد ماهيتها وتتحكم في الكثير من أفعال الإنسان، ذلك الشيء الغير الملموس ولا تعلم حقًّا كيف يكون، قد يكون سبب راحتك أو وسيلة لشقائك.

توترت مما حدث، فصمتت قليلًا، فلاحظت صديقتها ريم التغير الذي حلَّ بها فسألتها:

- هل أنتِ بخير؟

انتبهت لها فخرجت عن شرودها، ثم نظرت لها وقالت مبتسمة:

– أنا على ما يرام لا تقلقي.

ثم نظرت لأمجد تحاول أن تتصور كيف ستكون الحياة معه، لم يتحدثا كثيرًا ذلك اليوم فهي تشعر وكأنها داخل حلم غريب تريد الخروج منه سريعًا وهو من النوع الخجول الذي لا يتحدث كثيرًا كما أن كليهما منشغل باستقبال التهاني.

ما زالت الشكوك تجول بخاطرها، ولكنها أقبلت على ذلك الأمر بسبب حديث من حولها وتأثيرهم عليها، حتى وإن كان القرار قرارها، تدعو الله أن يهديها لما فيه الخير ويريح قلبها.

***

كان أمجد في قمة سعادته، ولكنه كان يرى توتر أيسل ويعلم أنها في حيرة من أمرها، فهي لا تعرفه، وقد جرت الأمور بسرعة، حتى هو بالكاد يجاري ما يحدث لأنه يريده، فحاول إزالة ذلك التوتر ونظر إليها:

– أعلم أن عقلك لا يتوقف عن التفكير حتى يكاد يخرج دخانًا، وأعلم أن الأمور سارت بسرعة، ولكن ....

صمت قليلًا وهو يطيل النظر لأعينها يتعجب لما يحدث به ....

(وإن كان في الفلك ظلمة وتيه، ففي فلك أعينك نور ورشد)

تنهد ثم أكمل:

– لقد شعرت بشيء يسحبني نحوك، أصبحت لا أنام الليل مفكرًا بكِ، أريد أن أحدثك كثيرًا، وإن كان هذا معاكسًا لطباعي، رأيت أنه يجب أن يكون هناك شيء رسمي حتى لا يكون هناك حرج أو ضرار، تمنيت أن تمنحيني الفرصة وكنت أدعي الله وأترجاه حتى أمسيت أحدثك ها هنا الآن.

أمامنا فترة من الزمن لنتعارف ونكتشف هل هناك توافق أم لا، وأريدك أن تعلمي أنه ليس هناك أي نوع من أنواع الضغط أو التلاعب بالأعصاب، يجب أن يكون كل شيء عن اقتناع تام وبارتياح.

نظرت إليه في دهشة وانعقد لسانها، لا تدري ما يجب عليها أن تقول، ولكنه قد رُفع شأنه أمامها، وشعرت بالطمأنينة أكثر، ورأت أنها ستكون بين أيدٍ أمينة.

ولكنها لم تجبه، واكتفت بالنظر إليه والإماءة برأسها فقط موافقة ما قال مع ابتسامة.

وها قد حان وقت المراسم الخاصة بهذه الليلة، فأحضرت والدته الخاتم الخاص بالخطوبة، وقام بإلباسها إياه، ونظر إليها نظرة حانية، ثم تنهد بعد أن وصل إلى مبتغاه، ثم فعلت هي أيضًا مثلما فعل، وقامت بإلباسه دبلته الخاصة.

غربة وعذاب

١

أقف عند تمثالك المثبت بقلبي، ما زال يحتفظ ببريقه كأول مرة تم تشييده منذ أول لقاء بيننا، هنا بدايتنا وهنا نهايتنا وهنا بدأت أدمعي بتكوين سيلٍ حتى ابيضت عيني منتظرًا عودتك.

***

عندما يمر الإنسان بصدمة ما للمرة الأولى بحياته لم يكن يظن أنها ستحدث يتغير شيء بداخله، لا يعود ذلك الشخص الذي اعتاد عليه، وهذا ما حدث لحمزة، تغير ولم يعد على سجيته، بات شاردًا أغلب الأوقات، يهيم بالمدينة لا يهتدي إلى موطن ولا يشعر بالانتماء، وكأنما سُحبت منه الطمأنينة إكراهًا واحتله التيه والتشتت، يطوف بالطرق، تذهب به قدمه بكل مكان جمعه بها، يبحث قلبه عنها فيدق بشدة عند كل مكان ويتفتت، فهو لا يعثر عليها، إنما ارتحل، ولكنه يجدها في ذاكرته، فكل ومضة ذكرى تضع خنجرًا جديدًا، فلا يطيب.

هنا عندما أنقذتها من الموت فقضت هي علي، وهنا عندما جلست معها على طاولة واحدة نتبادل أطراف الحديث، وهنا بدأ كل شيء، هنا تكمن اللعنة ويكمن الحب ويكمن العذاب، هنا بداية كل شيء ونهايته، هنا بدأت القصة وهنا سأنهيها مع هذا البحر، ترى كم حكاية يحمل، وكم قلوبًا محطمة واساها، وكم من عشاق تغنى بهم، ترى لديه أمواج عاتية ولكن بالأسفل هناك سكون، فلا تسمع همسًا، يحمل الشيء ونقيضه، تنظر إليه بما يحمله قلبك من مشاعر.

ظل حمزة يتأمل البحر، يبادله النظرات الحزينة والخيبة التي حلت به، فبدأ يخاطبه:

- أعلم أنه ليس ذنبها، فأنا لم أعترف بشيء، ولم أُظهر لها أي شيء مما يحمله قلبي

تجاهها، أعلم أنها لم تخطئ، وما فعلته من حقها، هي لم تأتِ لكي ترحل فقط، لقد طرقت الباب ثم هربت سريعًا، ولكني كنت أعلم من الطارق، فكنت أراقبها منذ البداية من خلف النافذة، أترقب اقترابها حتى أفتح لها باب قلبي على مصرعيه، وأقف أمامها فاتحًا لها ذراعي، ولكن هل تأخرت في اتخاذ الخطوة أم أن كل ذلك كان ضربٌ من الخيال بداخلي، كنت أظن أنها من كانت تأتيني في منامي، ولكن عندما رأيتها في ذلك اليوم لم تشبه تلك الفتاة التي تزورني، أو فلنقل أنها لم تشبه تلك التي قمت برسمها في مخيلتي، لا أعلم كيف تقضي أيامها، وهل هي سعيدة أم لا؟! ولِمَ أكترث لأمرها؟! فنحن بالكاد قد تحدثنا مرتين أو ثلاث، ما بالك أيها الغبي! ماذا حدثَ لك؟! لقد كنت باردًا جامدًا وكأنك قطعة من جبل أحد، الآن أصبحت دافئًا تحمل المشاعر؟! لماذا تتعلق بها لهذا الحد؟ أخبرني، هل يعجبك ما يحدث لنا الآن؟!!..

ولكن، فلنعترف أني كنت خائف، كنت أخشى فقدانها، كنت أنتظر لحظة مناسبة بعد وقتٍ ما، لم ألحظ أن كل شيء قد حدث صدفة بقدر دون تخطيط، ما الذي كنت أفكر به، كان عليَّا اتخاذ الخطوة سريعًا، ولكني كنت خائف من الرفض، لم أكن أعلم ما حقيقة شعورها، ولكن لم أكن سأخسر شيء، يا لي من أحمق، لقد أضعت كل شيء، حتى قلبي بعد أن استيقظ من سباته فقدته بسهولة، لقد سقط في هاوية سحيقة، لا أدري هل له من عودة، نار تجتاحه، وألم ملازمه، لقد كنا في غنى عن ذلك الشقاء، يا ليته كان جبل من جليد.

كان يُحدث نفسه ويُدون ما يقوله في ورقة وهو جالس في ذلك المكان الذي التقيا فيه من قبل، ومن ثم قام بدفن تلك الورقة في ذلك المكان الذي كانت جالسة عنده بجواره، وكان يلقي بكلماته للبحر الممتد أمامه، يرى أمواجه المتضاربة وكأنه يثور لأجله، يشاركه مشاعره المتداخلة، فتذكر أحد الأبيات الشعرية للشاعر خليل مطران عندما كان مكانه في زمان ما، وكأن الألم سرمدي باقٍ مهما تغيرت الأوجه ومهما اختلفت الأزمان:

شاكٍ إلى البحر اضطراب خواطري فيجيبني برياحه الهوجاء

ثاوٍ على صخرٍ أصمٍ وليت لي قلب كهذه الصخرة الصماء

ينتابها موجٌ كموجِ مكارهي ويفتها كالسقم في أعضائي

***

عندما وُجد مصطلح الشقاء كان لابد من وجود معنى مضاد له، فلم يكن هناك أفضل من كلمة السعادة، وإن كانت تلك الكلمة تختلف من شخص إلى آخر حسب ما تعتمد عليه سعادته أو ما يتمناه، ولكن يظل شعورها واحدًا بقلوب جميع البشر.

بالنسبة إلى أمجد فقد أصبحت حياته رغدًا، فها هو يملك عملًا جيدًا له مكانته المرتفعة في المجتمع، ثم وبحبكة درامية جائت عن طريق الصدفة أصبح لديه فتاته الخاصة التي يستطيع أن يحلم معها بكل ما يريد، ويتشاركان كل شيء.

تغيَّرت حياة أمجد كثيرًا، فلم يعد ذلك الشخص المنبوذ وعديم الفائدة في صغره، وأصبح الآن رجلًا مختلفًا حتى ولو قليلًا في بعض الجوانب من وجهة نظره.

كان يريد التقرب من أيسل أكثر ويريد أن يعرفها عن قرب، ولكنه ما زال متوترًا، فهو لم يعتد على وجود أي أنثى في حياته سوى أهل بيته.

***

- تمهّل قليلًا هل ترى أن ذلك هو الحل فعلًا !

- لن أستطيع المكوث هنا أكثر من ذلك حياتي ستتحول إلى جحيم ، أينما ذهبت أجد ريحها ، كلما ارتحلت ببقاع تلك المدينة لا أجد سواها أمامي ، أريد أن ابتعد يا خديجة لن أتحمل كل هذا، صورتها تطاردني في كل مكان وكل ركن في تلك البلاد، لا تفارق مخيلتي، ولا تترك احلامي.

– على الأقل إنتظر حتى تقوم الأسرة كلها بالرجوع سويًا فلن تستطيع الرجوع بمفردك .

– سأحاول أن اقنع أبي .

– إن كنت مُصرًا بهذا الشكل اترك لي هذا الأمر .

اصبح المكان ثقيلًا علي قلبه، لن يستطع حمزة البقاء في تلك البلاد أكثر من ذلك، لا يرى سوى أن يعود إلى البلاد الباردة والتي تناسب قلبه لكي لا يتأذى، فقد كان يعيش هناك حياة هادئة بعيدًا عن تلك المشاعر التي تجتاح قلبه.

ها هو على متن الطائرة عائدًا من حيث جاء، ينظر إلى أخته، فهي التي أقنعت والده بالعودة، وقالت له أنها ستعود برفقته؛ لأنها اشتاقت إلى زوجها، وأيضًا سترعى حمزة، فوافق الأب بعد محايلات طويلة، ينظر حمزة من النافذة يراقب الأراضي الدافئة تختفي من تحته، تتوارى خلف السحب، ذلك المكان الذي شعر بأنه جزء منه ولم يغب عنه لحظة، يريد الابتعاد عنه بعد ما أراد أن يدفن قلبه أسفل ترابه، ولكنه لم يفلح بذلك؛ لأن قلبه قد أبى، فرحل معبئًا بالمشاعر على أمل أن تختفي، ولا يبقى لها أثر فيعود إلى برودة مشاعره مرة أخرى.

لم يودع أي شيء، فقط رحل في هدوء تام، ترك كل شيء خلفه، تمنى لو ألقى الذكريات في بقعة من بقاع تلك الأرض؛ ليعود كما كان، ولكن أبى القلب أن يتنازل عنها بسهولة.

يخطو أولى خطواته بعد أن عاد إلى زملائه وحياته الطبيعية التي اعتاد عليها منذ الصغر، يصدم الهواء البارد وجهه، ويستنشق رحيق ذلك البلد، فتعود له كل الذكريات الخاصة به هنا، وتمر بعقله سريعًا، فيبتسم ابتسامة خفيفة قائلًا ها قد عدت.

كان زوج خديجة بانتظارهم في المطار، قام باستقبالهم ثم رحلوا متجهين إلى بيت خديجة وزوجها؛ لأنها أصرت أنها لن تتركه بمفرده الآن وهو بهذه الحالة، والتي لا يعلم

عنها أحد غيرها، كان الجميع ملاحظًا التغيير الذي حدث له، ولكنه تهرب من الإجابة، وطلب العودة متحججًا بعدم الراحة، وأنه يشتاق إلى أصدقائه، فساعدته أخته وسافرا سويًا.

بينما هو ذاهب لمنزل أخته أمسك بهاتفه وكتب (لقد وصلت منذ قليل وذاهب للمنزل لكي أرتاح)، ثم أغلق هاتفه ينظر من نافذة السيارة بجواره تائهًا في ما مضى.

دخل البيت، ثم اتجه بلا مقدمات إلى غرفة خاصة به وترك أغراضه ملقاة على الأرض دون أن يرتبها، ثم ارتمى على السرير آملًا أن يشعر بالسلام والراحة قليلًا، ظل شاردًا محدقًا بالفراغ، باله مشغول، ولكن لا يستطيع التفكير، وبعد قليل غط بنوم عميق.

بعد سويعات من النوم استيقظ على صوت هاتفه يرن، بأعين مثقلة قام بقراءة اسم المتصل..

٢

لكل منا خيباته وآلامه التي تذهب به إلى قاع لا رجعة منه إلا بمعجزة ما، فإما أن تعيش في تعاسة وحزن طيلة حياتك تبكي على لبنٍ مسكوب، أو أن تضطر لقتل جزء ما بداخلك، والذي لا بد من التخلص منه لكي تكمل حياتك، وهو القلب، وعندها تصبح شخصًا لم تعتد عليه، لا تتعرف على ملامحك، تختلف نظرتك وكأنك وهبت حياتك لشخصٍ آخر يتحكم بها كيفما شاء.

***

الأيام تمر برتابة، كانت ريم تصارع نفسها من استقصاء أخباره، فلم يعد لها أي حق لفعل هذا، ولكن في بعض الأحيان كانت أيديها تفقد السيطرة وتذهب للبحث عنه في وسائل التواصل الاجتماعي، وتنظر لصوره وتطيل النظر حتى تستفيق من سكرتها، فتغلق الهاتف وتبدأ نوبة بكائها أحيانًا، وأحيانًا أخرى كانت تتماسك.

تتمنى لو كانت هي في مكان أيسل، ويا لسخرية القدر عندما تتمنى شيئًا بشدة وتدعو به ليل نهار، وفي صلاتك، وفي النهاية يكون من نصيب غيرك دون أن يفكر حتى، تحاول طرد تلك الأفكار من رأسها، فهي هكذا تشعر بأنها تخون صديقتها المقربة.

كل ليلة تدون ما يحدث معها، أفكارها، شعورها، تتساقط بعض الأدمع فتترك أثرًا واضحًا علي أوراق مذكراتها.

كانت تحاول جاهدة أن تداري مشاعرها ولا تظهرها في أفعالها، ومع ذلك كان يتم سؤالها كثيرًا إن كانت على ما يرام، ولكن في أحد الأيام تم إزاحة الستار، وكُشف كل شيء، ولجت إلى الغرفة، فوجدت أن أيسل تغيرت نظراتها، وبدأت العاصفة بالهبوب...

***

ها قد نال مراده، ولكن هل فعلًا سيشعر بالسعادة!

يعلم أمجد أنه لم يكن خيارًا لها من البداية، وأن الأمر بالنسبة لها كما يطلقون عليه صالونات أو معرفة بين الأهل، يريد أن يعطيها مساحتها ولا يفرض نفسه إجبارًا، كما أنه لم تكن له تجارب سابقة، فهناك الكثير لتعلمه في هذه النوعية من العلاقات، ولكنه سيحاول أن يكون شريكًا صالحًا.

كان شغوفًا بها، يريد محادثتها دون انقطاع، ولكن ظروف عمله كانت تحكمه، كما أنه لا يريد أن يجعلها أن تملَّ منه، فأصبح يسألها عن ما تفضله شيئًا فشيئًا، يريد أن يتوغل داخل حياتها؛ ليكون جزءًا لا يتجزأ منها، ولكن هيهات هيهات، لم يكن الأمر بتلك السهولة، فهو لم يكن بنفس الجاذبية لها، وبالتالي كان هنا نوع من أنواع البرود في المشاعر، فهي ليست شغوفة به كما هو الحال عنده.

وفي أحد المرات استحثه ذلك الأمر أن يخرج عن صمته، وذهب ليحادث أمه، فهي أفضل من ستعطيه الإجابة، فذهب إليها:

– هناك أمر يشغل بالي وأريد له تفسيرًا.

– قُصي عليَّ ما تريد.

– تعلمين أنه لم يكن لدي أي تجارب سابقة، ولست من ذلك النوع الذي يعرف كيف يعامل ويحادث الناس، ولكني أشعر ببعض البرود من أيسل، لا أشعر أنها تعطي تلك العلاقة شغف أو اهتمام كافٍ.

– وما الذي جعلك تقول هذا يا ولدي؟

– دائمًا ما أقوم أنا بمحادثتها ومعرفة الأشياء عنها، ولا أراها تهتم بمعرفة أي شيء عني أو تشاركني شيئًا ما، حتى عندما أذهب لزيارتها تكون صامتة أغلب الأوقات.

– لا تشغل بالك كثيرًا بتلك الأفكار، فقد تكون خجولة بعض الشيء أو قلقة، فتلك

تجربتها الأولى أيضًا، ومع الوقت ستسير الأمور بكل خير.

- أتمنى ذلك حقًّا.

***

أفكار تأتي وتذهب، وذهن شارد وأعين سارحة، لا تدري هل ما فعلته هو الصواب حقًّا، تشعر ببعض الذنب تجاه حمزة، فما زالت نظرته المنكسرة عالقة بذهنها، وحديث قلبها معه الذي نطق دون إرادتها، لا تدري أيسل ما يجب عليها فعله، فكان هناك نوع من الضغط عليها وتجميل تلك الخطبة، كما أنها لا تفهم حقيقة شعورها.

الآن تريد أن تعطي أمجد فرصة للدخول إلى قلبها، وللأمانة فإنه جاء طارقًا الأبواب بالطريقة الصحيحة، يبذل كل جهده لاستكشافها وإرضائها، ولكنها تدري أنها لا تتعامل معه بالطريقة الصحيحة، ولا تعرف كيف تبدد تشتتها، فهي لا تريد أن تظلمه، ولا تدري ما يجب عليها فعله.

مر شهر وبضعة أيام منذ خطبتها والأمور تسير ببرود من ناحيتها إلى حد ما، كما أنها لاحظت تغير صديقتها ريم، وسألتها ما الخطب عدة مرات، ولكنها كانت تخبرها بأنها متعبة قليلًا وينتهي الأمر، ولكن ما خُفي كان أعظم.

في إحدى زياراتها إلى ريم كانت في غرفتها وحدها، ولاحظت كُتيب صغير مفتوح على المكتبة أمامها، فنظرت فيه دون أن تحمله، فتبدل هواء الغرفة فجأة وزادت حرارتها، وفي صدمة ودهشة حملت ذلك الكُتيب الذي اتضح أنه مذكرة يوميات خاصة بريم، وأخذت تقلب صفحاته وتمر بكلماته لا تنطق بحرف، حتى اتضح لها كل شيء، وأثناء شرودها ذلك دخلت ريم الغرفة، فتفاجأت مما رأت، وذهبت مسرعة تنتشل الكُتيب من يد أيسل، ثم حفظته في أحد الأدراج، لم تُعطِ أيسل أي رد فعل، ولم تنبس ببنت شفة، ظلت شاردة في الفراغ، ثم جلست ريم بجوارها تبكي، وسألتها:

– ماذا قرأتِ!؟

– كل شيء تقريبًا.

– كان عليَّ كتمان الأمر، فأنتِ صديقتي، (قالت جملتها وهي تضع وجهها بين كفيها وتبكي).

– ولأنني صديقتكِ كان عليكِ إخباري منذ البداية، منذ أن بدأتِ بالإعجاب به ومحاولة استقصاء أمره.

كنت أشعر بتغيرك وأن هناك خطب ما، كنت أسألك فتتهربين من الإجابة، ولم أُرِد أن أضغط عليكِ، ولكن لم أتصور أن الأمر هكذا مطلقًا.

– أنا آسفة.

انهمرت الأدمع من أعين ريم وكأنها أصبحت منبع ماء جارٍ، حتى ظنت أن الغرفة ستمتلىء بدموعها إن استمرت على هذا الحال.

ظلت أيسل في حالة سكون لوقت قصير، لم تدرِ ماذا تفعل وعقلها لا يتوقف عن التفكير حتى تعطل تمامًا، ولم يعد لديها القدرة على التفكير أو اتخاذ أي قرار، ثم قامت باحتضان ريم، وقالت لها:

– لا عليكِ، لم تخطئِ في شيء، أحبك يا صديقتي.

***

خرج من المنزل يسترجع حياته التي اعتاد عليها، ذلك الطقس البارد الذي تخلل قلبه؛ ليصبح أكثر برودًا من طقس روسيا، تلك الشوارع التي تخلو من الدفء والحب، ظل يسير حتى وصل لمكان ليس عليه بغريب، فقد اعتاد الجلوس فيه دائما، شجرة نائية بحديقة زوارها قليلون، يقترب ويتذكر عندما كان يجعلها مكان اعتكافه للمذاكرة أيام

الامتحانات، أو ينعزل عندها عن باقي العالم، يقترب ومع كل خطوة تومض ذكرى تصاحبها رؤية أوضح لمن ينتظره.

تلاقت أعينهما، وكانت أعين حمزة أكثر برودًا عن ما كانت عليه قبل أن يسافر، كما أنه يشوبها الكثير من الحزن وكسرة القلب، ولكن هذا لم يحول بين تصافحهما الحار.

– لقد تغيرت كثيرًا يا حمزة، لولا أني أعرفك لمدة طويلة لم أكن لأستطيع أن أتعرف عليك.

– وأنتَ لم تتغير يا مايك، ما زلت كما أنت.

ولكن كيف تغيرت أنا من وجهة نظرك؟

– أصبحت بشرتك سمراء قليلًا، وتغيرت ملامحك بعض الشيء وكأن هناك من قام بنحت وجهك؛ لتصبح أكبر سنًا قليلًا، ووجهك أصبح باهتًا، أعينك تحمل من العناء ما يجعلك تصرخ بكل ما أُتيت من قوة، ومع ذلك لا تملك القوة أو الطاقة الكافية لذلك، وكأن ذلك الألم قد قام باستنزاف كل ما لديك، وجعلك بجسد لا يحمل سوى الشقاء.

– هل استنتجت كل هذا الآن أم أنك قرأت أحد الكتب الفلسفية قبل مجيئك وتُلقي عليَّ تلك الكلمات الآن. (قالها وهو يضحك بسخرية)

– لا تستهن بما تحمله الأعين، فهي من تقوم بتعريف الشخص، أما بالنسبة لبشرتك فذلك واضح وضوح الشمس التي فعلت بك هكذا.

– لا أُخفي عليك سرًا قامت تلك الرحلة بإعطائي صفعة لا أعرف كيف أفيق منها، ولكن كانت تلك الصفعة لقلبي وليس وجهي.

قام حمزة بسرد القصة باختصار، وظل مايك يستمع في انتباه، ليس من عادة حمزة التحدث عن أي شيء يحدث معه، فمعنى ما يحدث الآن أنه لا يستطيع أن يحمل في قلبه ما حدث كثيرًا.

حاول مايك أن يهون عليه بعد أن انتهى من قصته، ثم ذهبا لمحاولة إخراج حمزة من تلك الحالة ولو قليلًا.

ينظر إلى الساعة الموجودة على يده، يضرب رأسه ناسيًا، يحمل هاتفه ليجد عدة اتصالات فائتة، يترك مايك ويذهب مسرعًا لقد تأخر كثيرًا.

***

بيدها كوب القهوة الذي اعتادت عليه، تجلس بمكانها المفضل، تنظر من خلال الزجاج، والحقيقة أنها لا ترى ما خلفه على الجهة الأخرى، ولكنها ترى ذلك العالم الذي يستحوذ على مخيلتها، تنتظر قدومه، فقد مرت فترة طويلة منذ آخر لقاء بينهما، تنظر إلى ساعتها بتأفف، تستثقل الوقت فتمر الدقيقة كأنها عام أو يزيد، تظن أنها ستشيب وهي تنتظر، تقوم بالاتصال به عدة مرات ولكن دون جدوى، مرت نصف ساعة عن الموعد المحدد للقائهما، فهمَّت بالرحيل بعد أن فقدت الأمل في قدومه، وبينما هي تلملم أشيائها إذا بمكالمة هاتفية تأتيها ليعتذر لها عن تأخره ويخبرها أنه سيصل للمكان المحدد في غضون عشرة دقائق.

شعرت بالراحة قليلًا بعد تلك المكالمة، ولكن بعد دقيقتين من تلك المكالمة شعرت بنغصة في قلبها، يداها ترتجف وقلبها لا يكف عن الخوف، لا تدري ما يحدث لها، حاولت أن تهدأ قليلًا، وها قد مرت عشرون دقيقة لا تشعر بارتياح، قامت بالاتصال به ولكن..

٣

أتذكر تلك النبرة الباردة بصوتك وقت وداعنا كانت تشي بالكثير.

نظراتك الباهتة الخالية من الشغف.

رأيت الذكريات تُباد عن بكرة أبيها دون شفقة.

كانت الزهور تحترق.

حل الخريف برياحه الهوجاء تقتلع كل ما يقابلها، ولكنها لم تستطع اقتلاع صورتك من عقلي ولا حبك من قلبي.

***

(أريد أن أراك في أقرب وقتٍ ممكن).

ينظر أمجد لتلك الرسالة، يشعر بالارتياب، فلم يتم ذكر أيَّة تفاصيل، وبالرغم أنها مجرد رسالة ولكنه كان يشعر بها، لقد كُتبت بمشاعر باردة، يعلم أنه سيحدث ما لا تُحمد عقباه بالنسبة له.

أنهى عمله وذهب مسرعًا، فيبدو أن الأمر لا يحتمل التأخير، وقد سألها عدة مرات ماذا هناك ولكنها لم تجبه، وأخبرته أنه سيعرف كل شيء عندما يأتي.

وصل للبيت وجلس قبالتها، قلقه زاد كثيرًا عندما رآها، هو معتاد على قلة شغفها ناحيته، ولكن الآن يبدو أنه قد انتهى كل شيء، لا شيء يبدو عليها يوحي بالرحمة أو التعاطف، لا يحب ما يحدث.

– ها أنا قد أتيت، ماذا يحدث؟

– أعلم أنك تُحبني، ولكن نحن لا نملك قلوبنا، لم أستطع أن أبادلك شغفك وحبك، لم أستطع أن أراك بتلك اللمعة التي تظهر بعينك عندما تراني، لم أستطع أن أحبك، لقد حاولت.. أنا آسفة.

ليس هناك ما يعيبك، بل العكس تمامًا، يشهد الله أنك عاملتني بكل ما هو حسن، ولكني لم أستطع أن أبادلك ذلك، ولهذا فأنا لا أستحقك.

أنهت جملتها الأخيرة وصمتت لعدة ثوانٍ، كان أمجد صامتًا لا يدري ماذا يقول، ثم تنهدت وأكملت:

– كما أخبرتك، قلوبنا ليست بأيدينا، لا نتحكم بها لتحب من نشاء أو أن تكره من نشاء، ولذلك هناك شيء عليَّ إخبارك به.

هناك شخصٌ آخر يحبك حُبًا جمًا، ولن أُبالغ إن قُلت أنه أكثر من حبك لي بكثير، إنك تعرفها قبل معرفتك بي، ولكنك لا تتذكرها.

بدأت تقص عليه ما حدث، كيف ساعد ريم، وكيف بدأت تراقبه، وكيف احتفظت بسرها في بئر عميق بعيدًا عنها.

– إنها صديقتي، وبعد ما فعلته وتحملته من أجلي فأنا لن أستطيع أن أقف مكتوفة الأيدي، أعتذر لك، ولكن هنا نهايتنا، أتمنى أن تسامحني، وستستطيع أن تتخطاني بسهولة، فنحن لم نمضِ كثيرًا من الوقت سويًّا، وحاول أن تتقرب منها، فهي تحبك للغاية، وأنا واثقة أنك ستقع في حبها أيضًا، سعادتك معها وليست معي.

كل شيء يحدث لسبب، ربما اجتمعنا لهذا السبب، بأن تكون مع ريم وليس أيسل.

– ليس هناك ما أخطأتِ بحقي فيه حتى أسامحك عليه.

كما قلتِ، قلوبنا ليست بأيدينا، فلهذا من حقك أن ترحلي.

أحترم وأقدر اهتمامك بصديقتك، أدعو الله أن يحفظكما ويديم المحبة بينكما.

حان وقت الرحيل، أشكرك على ذلك الوقت الذي قضيتيه معي، وأتمنى لكِ الأفضل، وأن تجدي من تتشاركين معه روحك.

الوداع.

رحل وهو يحاول إدراك ما حدث للتو، هل حقًّا قد تم هجره!!...

نيران تشتعل بقلبه، كان يود لو أنه قد أخرج صيحة عالية يعترض بها صيحة نابعة من قلبه الذي جعله بهذا الضعف، لم يُرد ذلك الفراق، ولكن ليس بيده ما يفعله، فأنت لا تستطيع أن تجبر أحدًا على حُبك أو البقاء معك، رحل بقلبه الحزين الذي لم يتوقف عن البكاء، أما عن عينيه فقد كانت جافة لم تذرف دمعة واحدة، تعالى أمجد على الحزن وبكاء الأطلال، أما قلبه فقد حمل الحزن بأكمله، ولكنه كان يعلم أنه مع القليل من الوقت سيهدأ ويعود إلى طبيعته، ولكن هيهات لذلك الجرح بأن يلتئم بتلك السرعة.

***

تشعر وكأن العالم قد توقف من حولها، قلبها سيتوقف لا محالة، تدور أعينها في من حولها، تبحث عن شخصٍ معين ولا تجده، لا ترى أحدًا، تحمل أغراضها وتذهب مسرعة، تعبر الطريق، كادت سيارة أن تصدمها، لا تصدق ما سمعت، ماذا... من..... أين..... وكيف!!

عقلها في حالة من الصدمة وتذرف الأدمع، حتى كادت أن تجف أعينها، لا شيء أمامها سوى صورته وبعض اللقطات التي تشاركوها.

تصل إلى المشفى، تدخل مسرعة إلى الاستقبال، تسأل أين تجده، تجري في الممرات وكأنها تسارع الوقت، وصلت إلى الغرفة المقصودة ولكن ممنوع الدخول الآن، يجب الاطمئنان عليه من الفحوصات اللازمة وأن يحصل على قسطٍ من الراحة.

وجدت خديجة جالسة، فذهبت إليها وقامت باحتضانها، ثم اجهشت بالبكاء، قامت خديجة بتهدئتها، ثم جلسا ينتظران السماح لهما بالدخول له.

مرّت ساعة من انتظارهما حتى تم السماح لهما بالدخول لرؤية حمزة، وقف الطبيب قبالتهما ثم بدأ يتكلم عن حالته:-

- لا تقلقا، إنه بخير، فقط يحتاج إلى بعض الراحة، لقد كان الاصطدام عنيفًا، ولكن مرَّت بأقل الأضرار، فقط بعض الإصابات الخفيفة، والكدمات، وكسر في الساق، سيتم علاجه بجبيرة طبية وسيتحسن مع الوقت، الأهم من كل هذا أن وظائفه الحيوية على ما يرام، فقط هناك قلق في موجات المخ لمنطقة ما سننتظر حتى يخرج من المشفى ويمارس حياته المعتادة ثم ننظر هل هناك تغيير به أم لا.

سمح لهما الطبيب بالدخول أخيرًا، فور أن رأته جيسيكا حتى دمعت عينيها وهرولت عليه، ثم ارتمت بين ذراعيه تحتضنه، لم يفعل حمزة أي شيء سوى أنه قد قابلها بابتسامة، وأخبرها أنه بخير، لا داعٍ للقلق.

قامت خديجة بجذبها، ثم قامت بتقبيل أخيها على جبينه وجلست بجواره، ظلَّا معه لوقتٍ من الزمن للتخفيف عنه ومآنسته والاطمئنان عليه، ولكن كلاهما -جيسيكا وخديجة- كانتا يتملكهما القلق مما قاله الطبيب، ولكن أخفيا ذلك عنه حتى لا يفزع.

***

ويلٌ لذلك القلق الذي ينهش بالعقول، ويُؤرق صاحبه، ويذيقه ويلات التفكير المفرط حتى تظن أنه سيُجَن.

لم يفارق القلق ريم لبضعة أيام، لا تدري ما ستفعله أيسل، ولم ترها من وقتها، بل لم يتحادثا حتى، رد فعلها في تلك المرة لم يوحِ بما قد تفعله ولا تستطيع أن تتوقع منها أي شيء، حياتها أصبحت مليئة بالتوتر والقلق مَنذ أن علمت بتلك العلاقة.

وبينما هي مشغولة كعادتها بالتفكير المفرط رن هاتفها، وبعد التحية جاءتها الكلمات الآتية:

– لقد أنهيت كل شيء مع أمجد، لم نكن مناسبين لبعضنا منذ البداية، لقد فعلتِ شيئًا كبيرًا من أجلي، وتحاملتِ على نفسك كثيرًا، لم أستطع أن أقف مكتوفة الأيدي، فساعدتك بطريقتي، كما أعتقد أن قلبي مع شخص آخر، تتذكرين بالطبع أحاديثنا السابقة، أمجد لم يكن يومًا ملكي، إنه ملكك بالكامل يا صديقتي، أعتقد أني كنت مجرد وسيلة لتسهيل اجتماعكما، فما نحن إلا مجرد أسباب يربطها خيوط القدر، أظن أنها أيام قليلة حتى يحادثك وتبدأ رحلتك معه يا عزيزتي، أتمنى لكِ السعادة من كل قلبي، وأن يوفقك الله لما فيه الخير لكِ، ألقاكِ على خيرٍ، أحبك.

لم تنطق بحرف.. انتهت المكالمة.. ظلت جالسة واضعة رأسها بين يديها.. لا تستوعب ما يحدث.. ما كل هذا!!...

من كان يعلم أن حياتها ستنقلب رأسًا على عقب هكذا، وكأن إعصارًا قد أصابها، انتهت أدمع الحزن وحضر سكون الصدمة، كل شيء يحدث يفتك بالعقل يجعله يتفتت، لا تدري ما العمل، هل عليها انتظاره الآن حقًّا؟.. وهل سيحادثها من الأساس؟... تعلم أنه يحب أيسل وليس هي، هل تقبل بالتضحية أم تكابر وترفضه إذا حادثها؟!... هل تأخذ هي الخطوة الأولى!... لا، فيجب أن تكون مرغوبة لا راغبة، أحاديث عديدة بينها وبين نفسها لا ينفك أن ينتهي حديث فيبدأ غيره، تشعر وكأن هناك مطرقة عملاقة تقوم بالطرق على رأسها.

بعد مرور عدة أشهر لا تعلم عددها إذا برسالة تأتيها من رقم غير مُسجل على هاتفها، يقوم المرسل بشرح مبسط لبعض الأمور، وتأتي الرسالة كالتالي:

– السلام على من تملك قلبًا يسع العالم بأكمله، من تحمل بداخلها طفلة صغيرة، ولكنها صلبة قوية، تتحمل الصعاب، وتقوم بالتنازلات وتقدم التضحيات لمن تحبهم،

من مكاني هذا أقدم اعتذاري لمن تستحق كل خير، وتستحق أفضل مما حصلت عليه، أقدم اعتذاري إلى من احتوت أعينها العالم بأكمله، أقدم اعتذاري إلى تلك الأميرة التي لها حق تملك قلبي، أعتذر عن إغفالي عن محاولة السعي لمجاورة ذلك القمر الذي كان يبحث عني، إبقي مكانك، أنا من يجب عليه أن يأتي إليكِ، لن ترهقني قسوة الطريق، وإن كنتِ في بلاد الفرات آتيكِ سيرًا.

نحن نسير في دروبٍ مختلفة حتى يرمي القدر بشباكه فنتلاقى، كل شيء يحدث لسبب وغاية، أعتقد أنكِ تفهمين ما أعني، عذرًا، لن أستطيع التغزل بكِ الآن، ولكن أطلب منكِ أن تعطيني فرصة واحدة حتى أضع الأمور في مكانها الصحيح، وسأقوم بحفظ قصائد الشعر كلها لكِ، وسأتعلم الطبخ أيضًا، فقد علمت أنكِ لست بارعة في صنع الطعام، الآن قُمت بالاختيار بكامل إرادتي، أنتظر ردك بفارغ الصبر، إلى اللقاء يا صغيرتي.

٤

تركت وطنك مُحمَّل بالذكريات في عقلك، وقلبك يمتلئ بالدموع، تهيم بين البلاد باحثًا عن الدفء حتى تلتمس حنان دارك، لقد توغل كل شيء بقلبك، بلمسة واحدة تعلم أن نيرانك تلك ستنطفئ، ولكن هل لنا من عودة؟ أم أن ديارنا قطعًا قد رفضنا؟! تخرج صرخة يرتج لها عنان السماء، ليت الذكريات تُمحى كما ذهب أصحابها.

***

يجب أن أرحل لقد تأخرت كثيرًا.

(أعتذر عن التأخير، لا ترحلي، سأصل قريبًا)، فور أن أنهى جملته وأغلق الخط إذا بصوت إطارات السيارة تحاول التوقف فجأة، اصطدام عنيف... يدخل في حالة من الإغماء.... هناك بعض الدماء المُسالة على الأرض.... تجمهر من المارة.... يغيب عن الوعي تمامًا.... يتم نقله عن طريق السيارة التي قامت بإصابته إلى المشفى.... حالة طوارئ من حادث سير، المصاب في حالة حرجة، يتم الذهاب به سريعًا إلى غرفة العمليات، يجب إيقاف ذلك النزيف ومداواة حالات الإصابة والكسور، تمر حوالي ساعة أو أكثر قليلًا؛ ليتم نقله إلى الرعاية المركزة، وتركه لبعض الوقت حتى يفيق.

وبين كل ذلك كان حمزة في عالم آخر، من الخارج هو غائب عن الوعي ولكن في عقله ومن داخله في عالم اللاوعي، فهو في صراع من نوع آخر، يشعر بأن هناك خطب ما به، ولكنه لا يدري ما هو، مشاهد تأتي بعقله يعيشها ويشعر بها، فهو يعرفها جيدًا، يرى كيف كانت أمامه ولا يحق له فعل أي شيء، يشعر بذلك الإحساس عندما كانا عند الشاطئ متجاوران، يشعر بتلك الحرقة التي أصابت قلبه، وذلك الانكسار الذي أذلَّه، يريد نسيان كل ذلك، يريد أن يمحي صورتها من عقله، تدريجيًّا تتبخر صورتها من أمامه، يريد أن

يتخلص من ذلك الشعور، ينتفض جسده وتتحرك أعينه بسرعة وهي مغمضة، ثم فجأة يستيقظ إلى واقعه، يلقي بأعينه من حوله يحاول أن يدرك أين هو، لا يتذكر سوى أنه كان ذاهبًا لملاقاة جيسيكا، ثم سمع صوت السيارة، ينظر ليده وقدمه، لقد أدرك الأمر، فقد أصيب في حادث سير.

لحظات حتى انقضَّت عليه جيسيكا تأخذه بين ذراعيها وأعينها تفيض من الدمع، لم يفعل أي شيء سوى أنه ابتسم ابتسامة خفيفة، ثم قامت أخته بالتربيت على كتفه وقبلته على جبينه، حاول تهدئتها وإخبارهما أنه بخير، مجرد بعض الإصابات الصغيرة التي ستتعافى وتزول سريعًا.

– حمدًا لله على سلامتك يا عزيزي، لقد قلقت للغاية عليك.

– اهلًا بعودتك مرة أخرى يا حمزة، لقد كاد أن ينخلع قلبي من مكانه.

جلست الفتاتان معه قليلًا ثم رحلا لكي يأخذ قسطًا من الراحة، وفي صباح اليوم التالي مبكرًا إذا باب الغرفة يُفتح، وتطل جيسيكا بابتسامة كبيرة تعتلي وجهها، وأحضرت معها بعض الطعام، فقامت بتجهيزه لتقوم بإطعامه بيدها، ولكنه رفض في البداية واعترض، ولكنها أصرت على ذلك، فلم يجد منها مفر واستسلم لطلبها، كانت أعينها ممتلئة بالحب، والحنان، والقلق بالطبع مما حدث، لم تزل ابتسامتها أبدًا منذ حضورها، تحاول أن تخفف عنه، وتحدثت معه في عدة أمور، وكانت تمازحه كثيرًا، ولكن في لحظة ما انخفض مرحها وزالت ابتسامتها قليلًا، وقالت:

– تعلم أني أحبك، لقد قرأت في القصص والروايات، ورأيت في الأفلام كم أن الحب جميل ويجعل المُحب في قمة سعادته، ولكن أتعلم منذ حبي لك ولم أذق سوى مرارته، دائمًا في حزن وشقاء خوفًا من فقدانك إلى الأبد، بعدما لم أستطع جعلك تحبني كما عشقتك بكل خلية بداخلي، كنت أبحث عن أي شيء لكي أحادثك أو أقابلك وأُكثر من الحديث معك، كنت تعلم بحبي ولكنك لم تلحظ تلك اللمعة في عيني، لم تلحظ لهفتي عليك، لم

تلحظ شغفي ناحيتك، عندما ذهبت إلى مصر ولم تجب على أي من رسائلي كنت أظن أنها النهاية وأني فقدتك للأبد، كنت أتمنى لو تحادثني حتى ولو لمرة أخيرة، أسمع صوتك لمرة أخرى فقط.

بعدما أخبرتني أنك عائد إلى هنا أخيرًا كنت أطير من الفرحة، وانتظرت لقائك هذا بفارغ الصبر، كنت كالفراشة التي عادت لها الحياة، فأخذت ترفرف بجناحيها البديعين، كنت أرسم عدة مشاهد في عقلي للقائنا، ولكن ما لم يأتِ بخاطري هو لقائنا هذا هنا ورؤيتك هكذا، كنت أنتظر لقائك ورؤيتك، ولكن يمكنني أن أقسم أنك لست ذلك الشخص الذي اعتدت عليه، أعينك اختلفت يا حمزة كثيرًا، وأُجزم أن قلبك أيضًا قد تغير، لن أسألك ما حدث هناك في مصر، كل ما أريده هو أن تكون بخير، ما يعتلي وجهك قد عانيت منه، لا أدري حقًّا هل حدث ما يدور بعقلي أم ماذا، ولكن أتمنى ألا تذوق مرارة ما أعاني منه الآن.

أشاحت بأعينها عنه، ثم تنهدت لتكمل، ويبدو أنها كانت تقوم بختم كلامها:-

- لا أظن أني سأستطيع أن أبقى كثيرًا، بدأ العد التنازلي لرحيلي، والذي سيأتي فجأة دون أن تشعر، قلبي يتهالك لا أستطيع المحاولة كثيرًا، إني أستحيل رفاتًا من ذلك الحب، وأنت لا تنظر لي حتى، ولكن لا أستطيع كرهك أبدًا، فأنا المسؤولة الوحيدة عن ما يحدث لي، وكيف لذلك القلب الذي جعلك تسكنه بأن يرفضك تمامًا، وكل ركن به يحمل من صورتك، ولكن لا تقلق، مع الوقت سيتهالك ذلك القلب من الفراق، فأهدمه وأشيد غيره، ولكن بحصون أشد قسوة.

(تمنيت لو أستطيع أن أهدمه وأشيد حصنًا منيعًا غيره.. ولكنه قلبي، ذلك القلب الذي يبكي ما تبقى منه الدم).

***

شعرت بأن ثقلًا كبيرًا قد أزيح من على عاتقها، هي لا تريد ظُلم أمجد معها، كما أن ريم هي أقرب صديقة لها، وفوق كل ذلك لقد أدركت أخيرًا ما الذي تريده، أدركت ماهية شعورها، علمت لمن ينبض قلبها وسُحرت أعينها.

مرَّ أسبوع تفكر في ما ستفعله، لم يعترض أحد من أهلها على ما فعلته من فسخ للخطبة، ولكن لا أحد يعلم بما في قلبها لحمزة، تفكر في طريقة للوصول إليه وهي تعلم أن أفضل طريقة هي عن طريق خديجة أخته.

وفي يوم ما خلال ذلك الأسبوع شعرت بضيق في صدرها، وكأن الدنيا قد ضاقت بها، لا تدري لماذا قد فرت دمعة من أعينها وكأن هناك مكروهًا ما قد حدث، لا تدري ماذا ولا أين ولا لمن، ما أعجب ذلك القلب عندما تأتيه مشاعر فياضة، كيف لتلك المضغة أن تتحكم في ما نشعر؟! ظل بالها مشغولًا والفضول يقتلها.

٥

بعد عام...

عام قد انقضى، تتابعت به المواسم الأربعة، الموسم تلو الموسم، ولكن هناك قلوبًا لا تعلم سوى رياح الخريف وثلوج الشتاء، قلوبًا تبحث عن الدفء، تهيم في البلاد أجمع، لا تهتدي لوطن ولا تطمئن لجار، لا تشعر بالانتماء إلى أحد من حولها، فهي تعلم دارها حق المعرفة، تعلم أين سعادتها وسكونها، أين دفئها وأمانها، فترفض جميع الديار الأخرى.

ها قد حققت أيسل واحدًا من أكبر أحلامها وأهدافها، وقد قامت بدخول كلية الصيدلة كما تمنت دائمًا، وقد أنهت عامها الأول بتفوق، ولكن بالها دائمًا مشغول، تبحث عن شيء آخر الآن، قلبها شارد وتعلم سبب شروده، ولكن لا تدري كيف تسكنه، فكرت في العديد من المرات بأن تحادث خديجة تستقصي الأخبار عنه، ولكن سرعان ما كانت تتراجع عن ذلك، لم يفارق حمزة مخيلتها أبدًا، كان يزورها في أحلامها، في العديد من المشاهد بعضها يكون كابوسًا، كانت تشعر أن هناك خطب ما يحدث ودائمًا تشعر بالقلق والحزن.

وفي يوم ما ذهبت حيث التقت به وجلست بجواره أمام البحر، تذكرت كيف كان ينبض قلبها، كيف شعرت بالراحة حينها، كانت تنبش في الرمال وكأنها تصنع حفرة، ولكنها كانت شاردة في أفكارها، ظهر أمامها طرف لورقة، فجعلها الفضول تكمل الحفر حتى حصلت عليها، فتحت الورقة وأخذت تقرأ محتواها، كان الحزن يسيطر عليها، تشعر بنغصة في قلبها، كانت تشعر وهي تقرأ أن ذلك الكلام موجه لها حتى رأت التاريخ المدون وامضاء كاتب تلك الرسالة، وهنا كانت الصدمة حقًا.

في أحد الأيام جمعت شجاعتها، وحملت هاتفها، وبحثت عن خديجة لتراسلها، قامت

بإرسال التحية ويدها ترتعش، ثم تركت الهاتف تنتظر الإجابة، انتهى ذلك اليوم دون أي رد، وكان كلما جاءتها رسالة تذهب مسرعة لتمسك الهاتف، ولكن يخيب ظنها عندما ترى أن الرسالة ليست من الشخص الذي تنتظره.

مر يومين دون رد، وبينما هي جالسة مع أختها قالت:

– لقد قمت بمراسلة خديجة لأطمئن عليها وأسألها عن حالها، ولكنها لم تجب مذ يومين، هل هي بخير!؟

– نعم إنها بخير، ولكن قد تكون مشغولة مع أخيها بعمل بعض الفحوصات الطبية التي يقوم بها كل فترة.

– فحوصات طبية!.. لماذا؟

– ألم تعلمي ما حدث!.. لقد أصيب حمزة أخيها في حادث سير مذ ما يقرب عام، ومذ ذلك الوقت وهو يقوم بعمل الفحوصات باستمرار للتأكد من حالته.

صمتت قليلًا.. لا تدري هل عليها أن تكمل حديثها أم لا، ولكنها أكملت بعدما رأت القلق البالغ بأعينها، فعليها أن تعرف كل شيء وأكملت:

– وقال الطبيب أن هناك خطب ما بالمخ، ولكنه لا يستطيع تحديده بالضبط، ولكن مكان حفظ الذاكرة في المخ يبدو بأن هناك خطب ما به، ولكنه ينتظر مع الوقت ما سيحدث ليتأكد.

كانت أيسل في حالة من الصدمة، لم تنبس ببنت شفة، ولكنها لم تكن في ذلك العالم، كل ما كان يجول بعقلها هو تلك اللحظات التي شاركتها حمزة، تركت أختها وذهبت لغرفتها، جلست وما زالت في حالة الصدمة تلك لا تدري ما عليها فعله، ثم اجهشت بالبكاء، كان قلبها يُغرز بسيوف ويُقطع إلى أشلاء، أعينها تفيض بالدمع حزنًا، وكأن هناك سد قد انهد وترك الماء يغرق ما أمامه، تندب ما حدث وتندم على ما حدث،

أصبحت تحادث نفسها...(يا ليتني قد انتبهت له، لقد حطمت قلبه، ما زلت أتذكر نظرته تلك تنهش بقلبي، وتؤرق نومي، هل نسيَني الآن!!).

كانت في حالة أشبه بالجنون، عقلها يفتك بها، شعور بالندم مختلط بالحسرة يتخلله الحزن.

***

كانت الأيام تنقضي برتابة، لا جديد يذكر، والعقول شاردة في ما قد مضى.

وفي أحد الأيام جاء عمل لأمجد وكان عليه السفر إلى القاهرة، فقبل رحيله قام بمقابلة باهر.

- سأرحل غدًا يا باهر.

- سلم الله طريقك ووفقك إلى كل خير يا صديقي، ولا تنسَ مراسلتي دائمًا، وأنا أيضًا سأقوم بمراسلتك.

وقال له في نوع من المزاح:

- وانتبه إلى نفسك، فالفتيات هناك جميلات يفتكن بالقلوب، ومن يدري فقد أجدك عائدًا لي وفي يدك إحداهن.

تبسم أمجد ضاحكًا وشرد ذهنه وتذكر ما مضى مذ عدة أشهر، صورة ريم أصبحت لا تفارقه، يشعر أنه يجب عليه أن يفعل شيئًا تجاهها، هو لا يريد أن تكون الظروف والصدف هي ما تحركه، يريد أن يتخذ قراراته بنفسه محكمًا عقله متحكمًا في قلبه، كلمات أيسل الأخيرة ما زالت في أذنه، يضع ما قالته في حسبانه، ولكنه لا يقدر أن يأخذ خطوة أخرى لشيء كهذا، يعلم أن ريم تحبه، ويعلم أنها شخص جيد بمقاييس كثيرة، ولكنه هذه المرة يريد أن يتأنى قبل فعل أي شيء، كما أنه قد استنفذ قدرًا كبيرًا من طاقته مع أيسل.

لاحظ باهر شروده، فتبدلت نبرته وهو يحدثه:

- إن كنت تريد رأيي فأنا أرى أن تهدأ قليلًا، فأنت تحتاج لبعض الوقت لنفسك لتجمع شتات أفكارك وتلملم شتات قلبك، حتى لا تسقط إلى هاوية لا رجوع منها، إذهب إلى عملك، وانفصل عن ما يحدث هنا، وعند رجوعك قرر ما ستفعله، وفقك الله لما فيه الخير لك ويطمئن قلبك يا أخي.

شد أمجد الرحال إلى القاهرة ساعيًا لعمله، ترك قلبه وعقله ثم رحل محاولًا أن ينفصل عن تلك المدينة وما بها من ذكريات.

انخرط في العمل وأصبح مشغولًا للغاية، ونسيَ ما حدث وكأن شيئًا لم يكن، وها هي الأيام تتوالى وتُرد له روحه، وفي ليلة ما إذ به يرى من يبكي أمامه، فيقوم بمسح الأدمع عن ذلك الوجه الملائكي، ويطيل النظر بأعينه لا يدري إذا كان ذلك حلم أم علم، هو يشعر أنه يعرف ذلك الشخص ولكنه لا يدري من هو.

استيقظ من نومه وضربات قلبه متسارعة قليلًا، ولكنه يشعر بالراحة، لا شيء يقلقه، ثم هدأ قلبه شيئًا فشيئًا، حتى حلَّت عليه السكينة، يسود الهدوء بشكل جميل، فشعر بنسيم هواء، فذهب إلى الشرفة، ثم تطلع إلى السماء، فرأى النجوم تزين السماء بلوحة فنية أبدع فيها خالقها، وكان هناك إحدى النجوم المميزة أكثرهم توهجًا وأكثرهم وضوحًا تجاور القمر، فباغت عقله ومضة لذكرى تحمل صورة شخص يعرفه جيدًا، نعم، لقد حان الوقت، يجب أن يأخذ تلك الخطوة الآن، حمل هاتفه ثم أخذ يكتب رسالته وهو متبسمًا فرحًا، حتى إذا انتهى منها ألقى النظر مرة أخرى للسماء فرحًا، ثم ذهب ليكمل نومه وهو يشعر بخفة السحاب بقلبه.

***

خرج حمزة من المشفى عائدًا إلى حياته الطبيعية مع بعض علامات على جسمه من

تلك الحادثة، بالطبع لا يستطيع السير بشكل جيد لفترة بسبب ذلك الكسر والإصابات التي لحقت به، يشعر ببعض العجز، وهذا يضيق صدره، لا يشعر بحريته كما كان، ولكنه يحاول جاهدًا التأقلم مع ذلك الوضع والتغلب عليه، عاد والداه عندما سمعا بما حدث له، فعاد لمنزله مرة أخرى ولغرفته يستنشق عبقها ويشعر بالحنين لكل ما فيها.

كان يشعر بالكآبة وضيق الصدر، هناك أشياءٌ غائبة عنه يحاول تذكرها أو بطريقة أخرى يصنع قصصًا واحتمالات بعقله، ولكنها تظل وهمًا، غير أن كلام جيسيكا يؤثر فيه، هو لا يريد أن يجعلها حزينة، ولا أن يظلمها، ولكن تلك المضغة ليست بأيدينا، لا نستطيع أن نجعل قلبنا يعشق ويكره من تلقاء أنفسنا، مستاء من رحيلها، فقد كانت صديقته المقربة لسنوات كثيرة، ولكن ليس بيده حيلة، ويظن أن مع مرور الأيام سيتخطى كل ذلك، ولكن هيهات لتلك القلوب أن تنسى الود بتلك السهولة، فكانت تزوره ذكرى جميلة كل حين، فيبتسم ويشعر بالحنين، ثم سرعان ما يحاول أن يفارق تلك الحالة، كان يظن نفسه باردًا بلا مشاعر لا يهمه من رحل ومن فعل كذا، ولكن الزمن خير معلم وكاشف للذات، وها قد ظهر قلبه على حقيقته.

مرت الأيام والشهور وحمزة يتحسن جسديًا بالتدريج، ولكن ما زال الشيء الأهم وهو عقله ما لم يتم التأكد منه حتى الآن، كانت خديجة تأتي باستمرار للاطمئنان على حمزة، وفي يوم ما بدأ شيء بالحدوث، حدث ما كان يترقبه الجميع، كان حمزة في غرفته منخرط في قراءة أحد كتبه كما هي عادته حتى سمع صوت هاتف أخته يرن، انتظر قليلًا ولم يُلقِ له بالًا، ظنًا منه أن أخته ستلاحظه أو يصمت، ولكن ما انفك أن انتهى الرنين حتى أصدر رنينه مرة أخرى، فنادى لأخته لكي تجيب لعلها لا تسمعه، ولكن لم يأتِه أي رد منها، فذهب إليه ليرى ما الأمر.

وصل للهاتف فحمله ليرى من المتصل، وما أن وقعت عينيه على الاسم حتى شعر بصدمة في عقله، وحضره مشهد مشوش، اختل توازنه وأمسك برأسه، يرى أشخاصًا،

ولكن لا يميز ملامحهم بعقله، ومشاهد لا يدري من أين تأتي، يكتم بداخله صرخة مدوية تفتك بقلبه كما يتفتت عقله، حتى دوت منه صرخة من شدة تألمه، ثم غاب عن الوعي.

(الفصل الاخير)
الطريق إلى نجمتي..

١

وإن ذكر الجميع قسوتي كجبلٍ من جليد فما لي أذوب بين يديكِ، ولقد شهدت الجموع عن هيبتي وشموخي ولكن ما انفكَّ حتي أصبح طفلًا صغيرًا أمامكِ.

***

كانت تقرأ الرسالة وأعينها تفيض من الدمع، لا تستطيع تصديق ما تقرأ، ما الذي يحدث!، وهل تلك الكلمات حقيقة فعلًا؟، كانت تبكي فرحًا بشدة، تحاول أن تتمالك نفسها ولكن لا تقدر، فتعيد قراءة الرسالة مرة أخرى مرارًا وتكرارًا، حتى صرخت فرحًا، وأخذت تجول في غرفتها بسرعة من شدة سعادتها، وكأنها قد خرجت من شرنقتها، وأصبحت كالفراشة في خفتها وجمالها، وتحول البكاء إلى ضحك وسعادة، فتحت النافذة ثم ألقت ببصرها إلى السماء مستمتعة بالنسيم الهادئ الذي يمتزج مع جمال القمر في ليلة سعيدة لا يعكرها شيء، ظلت ما يقرب الساعة على هذا الحال والخواطر السعيدة والتخيلات المفرحة لا تفارقها، تحاول أن تتصور كيف سيكون لقائهما، وكيف ستكون حياتها، لم تفارقها الابتسامة، قد بات قلبها بخفة السحاب؛ لينام هانئًا بعد ليالٍ كثيرة وطويلة كان يتفتت فيها ويصرخ متألمًا في قاع الحزن.

احتفظت بسعادتها بتلك الليلة ولم تخبر أحدًا عن ما حدث، ثم في اليوم التالي كان يجب أن تخبر أعز صديقاتها ومن لها فضل كبير في ما حدث، فذهبت إلى أيسل فرحة لتقص عليها وتشاركها سعادتها وتشكرها.

وصلت ريم إلى بيت أيسل فألقت السلام على من في البيت، ولكنها لم تجد أيسل بين الحضور، ولم تسمع لها حسًّا، ولم تقابلها عندما وصلت، فسألت أين هي، فأخبرتها والدتها أنها بغرفتها، قد تكون نائمة.

استأذنت ريم ثم دلفت الغرفة واقتربت منها لكي توقظها، ولكن أيسل لم تكن نائمة بالفعل، بل كانت غارقة في أفكارها التي تبكي قلبها دمًا، وما أن جلست ريم بجوارها حتى ارتمت أيسل في أحضانها، وأخذت تذرف الدموع دون توقف وتبكي بشدة، وكأنها كانت تنتظر ذلك الملجأ والمكان الآمن الدافئ لكي تخرج ما بداخلها، فهناك بعض الأشخاص يكونون لنا ديارًا بعدما ضاقت بنا السبل، ويكونون لنا وطنًا بعدما لفظتنا جميع البلاد، لا تدري ريم ما يحدث، لماذا أيسل بتلك الحالة وما الذي حدث؟! ضمتها بين ذراعيها بشدة كالأم التي تحتضن ولدها ليهدأ، وأخذت تربت عليها محاولة تهدئتها، وتخبرها أنه لا بأس ستصبح الأمور بخير.

ظلَّا على حالهما هذا لبعض الوقت حتى هدأت أيسل تمامًا، فقامت ريم لتحضر بعض الماء، ثم أتت وبقت بجوارها لا تفعل شيء سوى التربيت على أيسل في محاولة منها لجعلها تشعر بالأمان ولو قليلًا، ثم أمسكت بيدها فوجدتها باردة وترتعش قليلًا، نظرت لها بعين حانية حزينة وهربت من أعينها دمعة حزنًا على صديقتها، فهي لم ترها من قبل في تلك الحالة، تنتظر أن تهدأ أيسل لتبدأ بالكلام، وبعد مرور ما يقرب من ساعة وجدت بأنها قد توقفت عن حالة حزنها، فسألتها:-

- هل هدأتِ الآن وتشعرين بتحسن؟

- نعم، لقد هدأت قليلًا.

- هل تستطيعين أن تخبريني ما الذي أوصلك لتلك الحالة!

- حمزة قد أصابه حادث، وفي الغالب أنه قد نسيَني، مذ وقوع ذلك الخبر على مسامعي وقلبي في انهيار دائم لا أستطيع الوقوف والاهتمام بأي شيء آخر، كل ما يجول في خاطري كيف هو الآن، وهل نسيَني حقًّا، لقد كنت قاسية معه، ما زلت أتذكر نظرته تلك التي تطاردني كل ليلة في أحلامي، أتذكر أعينه الحزينة المليئة بالخيبة والقهر، لقد أخطأت في ما حدث، وإن كان بشكل غير مباشر فقد كنت مرتبكة لا أدري ما يجب عليَّ فعله حقًّا،

ولكن ما حدث فقد انتهى، أما الآن فأنا لا أريده أن ينساني، أريد عودته، لقد علمت الآن، أنا لا أحتاج أحدًا سواه، هو من نبض القلب له وهو من تشابهت به روحي من قبل أن نتلاقى، يجب أن يعود يا ريم، يجب أن يعود، سيجد أبواب قلبي على مصراعيها، وذراعي في انتظاره لأضمه، ليخبره أحد أن الوطن بانتظاره، ولن يشقى معه أبدًا.

كانت تقول كلماتها والدموع تخالطها لا تقدر على حبسها، فقامت ريم باحتضانها مرة أخرى محاولة التخفيف عنها، فهي لا تدري ماذا يجب أن تقول، وفي هذه المرة قد هدأت في وقت قليل، وكأن المرة الأولى قد استهلكت كل طاقتها ومخزون أدمعها، ولكن الحزن بالقلب ظل كما هو لا يتلاشى، بل ينهش به أكثر فأكثر كالنار في الهشيم يحوله لرماد.

بعد أن هدأت أيسل قامت بسؤال ريم:-

- هل هناك ما جئتِ من أجله؟

ارتبكت ريم، لا تدري هل تخبرها بما حضرت من أجله وهي في تلك الحالة أم تراوغ سؤالها هذا وتنتظر بعض الوقت.

- ليس هناك شيء ضروري لا تشغلي بالك.

لاحظت أيسل ارتباكها وأنها أشاحت بنظرها وهي تجيب، فأيقنت بأن هناك شيء ما.

- لن تستطيعي الكذب عليَّ، فأخبريني ماذا هناك.

- لم أكن أعلم بما حدث معكِ، ولكني جئت وأنا في قمة السعادة لكي أشاركك ما حدث معي، وأخبرك أن أخيرًا ما كنت أتمناه قد تحقق بالفعل بعد مساعدتك الكبيرة لي، والتنازلات التي قدمتها.

شكَّت أيسل في ما تعنيه ريم بكلامها، ولكنها تريدها أن تكمل كلامها فاستحثتها على ذلك:

– وماذا أيضًا، ما الذي تعنيه بالضبط.

تنهدت ريم ثم أكملت:

– لقد قام أمجد بمراسلتي، لقد أرسل لي رسالة بها الكثير من الأشياء، منها أنه يعتذر لي، وأنه أخيرًا سنكون سويًّا، ولقد اختارني بالفعل بكامل مشاعره وتفكيره، وفور عودته من سفره سوف يأتي إليَّ.

أعلم أنه ليس الوقت المناسب لذلك القول، ولكن أنتِ من أصر أن أنطق بما جئت لأجله.

– هل تمزحين!!...

تلك الأخبار رائعة حقًّا، أنا سعيدة من أجلك للغاية.

ثم قامت باحتضانها وهي تبتسم محاولةً أن تشاركها فرحتها، ولكن هيهات هيهات، كيف المفر من ذلك الحزن المقيم بالقلب، فهي الآن أصبحت تتمنى ما حدث لصديقتها.

كانت ريم تعلم بذلك الحزن القابع بداخلها، وتدرك كيف تمر لياليها ثقيلة معبأة بالدموع والدماء السائلة من قلبها، كيف لا!؟ وقد أيقنت أنك قد فقدت من تحب ولن يكون معك سوى بمعجزة ما.

***

فتح عينيه أخيرًا، كان الجميع من حوله قلقون عليه، انقضُّوا جميعًا دفعة واحدة ناحيته للاطمئنان عليه، كان يطالع كل من كان حوله، والدته التي تمتلئ أعينها بالدموع حزنًا عليه، والده الذي يملأ وجهه القلق، أخته وسنده والحائط الذي يستند عليه تذرف الدموع أمامه، صديقه الغالي لم يفارقه منذ معرفته بما حدث حتى أفاق، وسرعان ما لاحظ أن هناك وجهًا مفقودًا بالرغم من تعبه وتشتته وجميع من حوله، ولكن لم يستطع نسيان ذلك القلب الدافئ الذي يصب عليه الحنان دون مقابل ولا حساب، كانت اليد التي

تمسكه برفق وتساعده على خطواته دون أن يطلب أو يتحدث عن ما يجول بخاطره، كانت جيسيكا في الغرفة، ولكنها كانت في ذلك الركن البعيد تذرف الدموع، ثم ذهبت لتنادي الطبيب لكي يعلموا حالته.

فحصه الطبيب بعض الفحوصات الروتينية ثم سأله عن ما حدث قبل أن يغيب عن الوعي، فقص عليه كل شيء، فعلم الطبيب علَّته، ولكنه لم يفصح بها أمام الجميع، ثم قال له بعض الكلمات ليطمئنه، ثم خرج من الغرفة، فتبعته خديجة ووالدها ليستعلموا عن حالة حمزة.

بأعين قلقة وقلب يرتجف سألت خديجة:-

- أخبرنا، ما علته أيها الطبيب؟

- كان هناك شيء أشك به من تلك الفحوصات التي أجريناها في البداية، ولكن كنت أنتظر دليل ملموس، وها قد حدث.

يخلع نظارته ويفرك عينيه، ثم يأخذ تنهيدة ويكمل وسط ذلك الهدوء الصادر منهم:

- ما حدث لحمزة الآن هو حالة من الصدمة، لقد حدث شيء ما له قبل الحادث، وغالبًا ما أحزنه للغاية وأثر عليه بشدة، كان يريد أن يمحو ما حدث من عقله وغالبًا ما يتعلق الأمر بشخصٍ ما، وأعتقد أنكِ تفهمين ما أعني، كان يتحامل على نفسه ويصارع ما بداخله، حتى جاء ذلك الحادث وأعطاه ما يريد، ولكن ليس بشكل دائم، فالأمر متعلق بقلبه ونفسيته أيضًا، وعندما يتعلق الأمر بتلك الأشياء فإن أقل محفز لهما قد يثيرا المشاكل كما رأينا، فيحاول العقل استرجاع الأشياء المرتبطة بذلك المحفز دفعة واحدة لدرجة لا يتحملها.

أعتقد أنكم تفهمون الآن ما أتحدث عنه، وعلمتم ما يجري بالتفصيل.

لقد بدأ في العلاج بالفعل، عندما تعرض لذلك المحفز ألا وهو قراءة اسم المتصل،

يجب أن يتعرض لتلك الأشياء المرتبطة بذكرياته، ولكن رويدًا رويدًا حتى لا ينقلب الأمر بشيء أسوأ، وسأقوم بوصف بعض المهدئات له لتساعده على الاسترخاء، فعقله الآن لن يهدأ حتى يقوم بتجميع كل الصور المحذوفة، والتي هي في حالة ركود.

أومأت خديجة متفهمة وحاولت أن تتمالك نفسها، ولكن كانت الدموع تفر من أعينها، انتظرت قليلًا مع والدها خارجًا لتهدأ ثم دخلا، حاولت أن تكون هادئة، ولكن حمزة قد لاحظ حزنها وتوترها، ولكنه لم يرد أن يشحن الأجواء توترًا أكثر من ذلك.

جاء تصريح خروجه بعد ساعات قليلة، ثم عاد إلى المنزل وأصبحت خديجة تلازمه كظلِّه.

كان حمزة في حالة تشتت ذهني لا يستطيع استيعاب ما يحدث، يشعر بسيف يُغرز في قلبه ببطء، يضيق صدره، يشعر برغبة عارمة بالبكاء ولكن أعينه جرداء ليس بها ما يسقي خده، يحاول عقله أن يتذكر شيئًا ما ولكنه يرفضه، واقعٌ بين الأشياء، بين عقله وقلبه، بين العودة والمضي في غربته، صراعٌ بداخله لا يفهمه، ألم قلبه ما يسقطه، تمنى لو يستطيع خلعه من جحره ليهدأ او يزول ذلك الألم، وبينما هو جالس في شرفته ليلًا يطالع النجوم التي تزين السماء كقطع اللؤلؤ كعادته محاولًا مراوغة ما يشعر به إذا بخديجة تأتي لتجلس بجواره، تشعر بالأسى عليه وحزن عميق، تطالع عينيه الغارقة في الحزن، فيتحرك قلبها حزنًا عليه، تود لو أنها ترجع بالزمن وتتخلص من كل ما حدث، ولكن هيهات هيهات كيف سبيل الرجوع.

٢

تبًّا لتلك اللحظة التي زار فيها الحب قلبنا، تبًّا لذلك الوقت الذي ظننا أنه من حقنا أن نشعر بالدفء، لتلك الأعين التي لمعت لشخص ما، لذلك القلب الذي رُمي بسهام العشق، مذ تلك اللحظة وقد وسم القلب بالشقاء، أصبحت الليالي حالكة السواد ليس بها نجوم تأنسنا، لِمَ نقع في حب من لا ينظر إلينا حتى!...

تبًّا لتلك المضغة، لا هي بيدي ولا أنا بحيلة أمامها، يا ليته جبل من جليد.

***

كانت چيسيكا أقرب شخص لسرير حمزة حتى إذا فاق تكون بجواره، جفت أعينها من كثرة الأدمع، كان الحزن يخيم على الغرفة ويعتلي جميع الأوجه، الجميع يدعو ويرتل في خشوع.

وفي ذلك الوقت الذي بدأ فيه حمزة بالعودة مرة أخرى كانت هي تنظر إليه منتظرة في ترقب حتى إذا فتح عينيه صاحت باسمه في شوق ولهفة، انقض الجميع عليه دفعة واحدة وهم يحمدون الله، وتداخل أصواتهم في الاطمئنان عليه، ولكن إذا بچيسيكا قد عادت للخلف في الركن البعيد وحيدة تراقبه من بعيد بعد أن كانت أقرب شخص له، ثم ذهبت لتنادي الطبيب للاطمئنان عليه.

كانت تسمع أقاويل حمزة عما حدث، وعندما خرج الطبيب مع خديجة ووالدها حاولت أن تسمع الحوار الذي يدور من خلف الباب، حاولت أن تجمع الاستنتاجات مما تسمعه وبدأت تثار داخلها الشكوك.

بعد أن هدأت الأمور قليلًا استأذنت بالرحيل، ولكن قبل أن ترحل أخبرت خديجة أنها تريدها في أمر مهم، وسألتها ما الذي حدث لحمزة في مصر، هي تعلم أن هناك أمر

جلل.

كانت خديجة تهرب بأعينها لا تريد إخبارها بما حدث، ولكن بعد إلحاح طويل من چيسيكا ورأت خديجة القلق في أعينها، وعلمها بما يحمل قلبها من مشاعر لحمزة لم تجد مفر، فأخبرتها بكل شيء.

استأذنت چيسيكا بالرحيل، فهي تشعر ببعض الإرهاق، كانت في حالة صدمة كبيرة، كيف حدث هذا؟ وكيف تكون تلك الفتاة التي استطاعت أن تذيب قلبه؟! لقد كنت أمامه مذ زمن طويل، قدمت له كل ما يمكن تقديمه، وهبت له عقلي وتفكيري، وهبت له قلبي وحبي، وهبت له كل وقتي وحياتي أجمعها ملكه، لقد كنت بين يديه قبل أن ينطق بالشيء كنت أعرفه من عينيه، صرخة تدوي بداخلها، الأعين سيل جارٍ، أصيبت بسهم كانت تخشاه طيلة حياتها، لقد وصم قلبها ولعنت سمائها، بدلًا من أن تذوب في حلاوة العشق، سقطت في شقاء الرفض، كانت تتشبث بكل أمل، كان لديها صبر وكأنها اكتسبته من أيوب عليه السلام، الشيء الوحيد الذي تمنته قد رفضها وأعرض عنها، ستتحول حياتها إلى جحيم.

بعد ما حدث ذلك قامت بالاطمئنان على حمزة عن طريق أخته، ومن ثم عزمت على الرحيل، ستحاول الاختفاء تمامًا من حياته، سترحل بهدوء تام، فما يحدث بينها وبين نفسها تلك الندبة التي خلفها حبه لن يداويها أحد غيرها، عزمت الرحيل ولم تراسله أو تقابله مذ تلك الحادثة، كان يحاول مراسلتها عدة مرات ولكنها لم تجب عليه، أرادت أن تحفظ ما تبقى من كرامتها وتلملم فتات قلبها، حتى علمت في يوم ما أنه عائد إلى مصر، هنا قد انتهى كل شيء حقًّا، لم تنظر وراءها مجددًا وذهبت في طريقها دون عودة.

***

كان حفلًا يليق بالأمراء، ليس بما تم إنفاقه من مال عليه، ولكن بما كان يحمله من جمال، بساطته وهدوءه، كانت السماء تتزين بالمصابيح، تحتفي بهم في جمال بديع، والقمر

شاهدٌ عليهم، يضيء لهم السماء بجماله الذي لا يضاهيه شيء، والنسيم الخفيف الذي يلطف الأجواء يداعب أوراق الأشجار من حولهم؛ ليزداد الجو روعة وخفة بتلك النعم.

أطلت العروس كملاكٍ هبط من السماء، أميرة حسناء تدلل بجمالها كيفما تشاء، تسرق الأنظار وتأسر القلوب بدون أي مجهود، تلك هي اللحظة التي انتظرتها منذ مدة طويلة، كانت تسير بتأني ويأتي بعقلها كل ما مرت به حتى تصل لهذه اللحظة، كانت تبتسم ابتسامة خفيفة، فها هو حلمها وفارس أحلامها واقفٌ أمامها لا يفصله عنها إلا بضعة خطوات قليلة.

قام والد ريم وأمجد بالجلوس قبالة بعضهم البعض وتصافحت أيديهم لعقد القران، وفور انتهائهما انهالت المباركات على العروسين من كل حدب وصوب، ثم وقف أمجد أمام ريم فاتحًا ذراعه مستقبلًا لها، فارتمت بين أحضانه ذاهبة إلى وطنها وملجأها، فدخلت بين ذراعيه والحق أنها قد سكنت قلبه، لقد كان الطريق طويلًا وشاقًا، أخيرًا لقد شعر أمجد بالطمأنينة، هنا حيث السكينة، هنا يزول كل ألم، هنا البيت الدافئ والقلب الكبير، سكن كلٌ منهما بحضن الآخر وقد امتزجت قلوبهما .

كانت أيسل سعيدة لصديقتها، كانت بجوارها في كل شيء أثناء الاستعداد للحفل، وحتى رحلت مع أمجد عند الانتهاء من الزفاف، ولكن كانت دائمة التفكير، كل شيء يحدث كانت تتخيل المشهد وأنها تحل مكان صديقتها وحمزة يحل محل أمجد، كانت تتمنى لو كان هذا حفلها هي.

***

كانت أيسل شاردة كعادتها تفكر في حمزة، لا يغيب عن بالها لحظة، تريد الوصول إليه بأي ثمن، وفجأة جاءتها رسالة غير متوقعة، انتفضت من مكانها تقرأ الرسالة عدة مرات لتتأكد مما تقرأه وتتأكد من المرسل فعلًا.

كانت خديجة هي المرسلة وكان مضمون الرسالة كالآتي:

(مرحبًا يا أيسل، كيف حالك؟ أعتذر عن عدم الرد عليكِ كل تلك المدة، ولكن كنت مشغولة للغاية ببعض الأمور التي فصلتني عن الحياة، وأنستني نفسي، كيف حالك أنتِ وكيف هي الأمور في حياتك الجديدة مع خطيبك وكليتك؟)

ردت أيسل حينها:

– أنا بخير والحمد لله، لقد انفصلت عن خطيبي منذ مدة، والآن تزوج صديقتي ريم، إنها حكاية طويلة، ولكن كل شيء بخير، والأمور بالكلية تسير بشكل جيد إلى حدٍ ما، أتأقلم مع الأجواء الجديدة رويدًا رويدًا، وأنا أعلم بما تمرين به وما يحدث عندك، لهذا كنت أراسلك لكي أطمئن عليه، هل هو بخير!؟..

– إنه بخير، ولكن ليس تمامًا، لقد تفاقمت المشكلة التي لديه، وظهرت أماراتها، ولهذا كنت أريد أن أطلب منك شيئًا، من الجيد أنكِ تعلمين بالأمر، ستوفرين عليَّ جهد الشرح.

– وما الذي بيدي أستطيع أن أقدمه وأنا هنا، في مكاني هنا وتفصل بيننا أبحر ومسافات!..

– سأقوم بإحضار حمزة إلى مصر مجددًا وعليكِ أن تقابليه، فهذا هو علاجه الوحيد، فما حدث له كان تأثيرًا نفسيًا مما عاشه في مصر من أحداث متعلقة بكِ، أعتقد أنكِ تفهمين ما أعني.

– حسنًا فهمت، سأقوم بكل ما أستطيع فعله، ولكن متى سيأتي؟!..

– في أقرب وقتٍ بإذن الله، وسأبلغك قبلها بوقت كافٍ لكي تستعدي.

٣

– حمزة سوف نعود لمصر.

ينظر لأخته بتعجب مما تقول، انتفض قلبه فور أن جال بخاطره ذلك المكان، نعم بالنسبة له أصبحت مصر كابوسًا، هو يعلم أن حياته قد انقلبت رأسًا على عقب منذ أن ذهب إلى هناك، أشياء كثيرة تغيرت وحدثت له، ولكنه لا يعلم يقينًا أن ما به الآن سببه هناك في وطنه الأم.

– مستحيل، لا أريد العودة إلى هناك، لقد عانيت بما يكفي، أنا أكره ذلك المكان.

– يجب أن تعود، فإن علاجك هناك، قلبك ما زال هناك يا حمزة، يجب أن تذهب لتسترده.

هل تتذكر من تكون أيسل!..

نطقت باسمها لتحاول تنشيط عقله، يجب أن يتغلب على حزنه ويستعيد نفسه.

وقع الاسم على أذنه كالصاعقة، أمسك برأسه من شدة الألم، يصرخ بشدة:

– لا لا ليس مجددًا، من تلك الفتاة، ومن هؤلاء الناس!؟..

قامت خديجة بإعطائه كوبًا من الماء تنتظر منه أن يهدأ قليلًا.

– تلك الفتاة هي التي سرقت قلبك يا حمزة، وقد رحلت حينها مع رجل آخر، ولكن ذلك كان منذ مدة، كنت تحاول أن تنساها ولكنك لم تستطع، ثم وقع ذلك الحادث وأصبحت ذكرياتك المتعلقة بها في مهب الريح، ولكن الآن عقلك يريد أن يسترجع كل ذلك، يريد قلبك أن يتغلب على ذلك الألم، يجب أن تهدأ روحك قليلًا.

تعالى معي إلى مصر وأنا أعدك بأن كل شيء سيسير في طريقه الصحيح هذه المرة، لن

أتركك وحيدًا، ثق بي.

كان حمزة قلقًا للغاية، كل ما يحدث لا يتحمله عقل، أشياء غريبة تحدث لا يتذكر عنها شيء وعلاج يجب أن يفعله، يجب أن يخاطر، يجب أن يخوض تلك المعركة، الحرب لم تنتهِ بعد، سيذهب ليسترد ما يملك كما أخبرته أخته، ولكنه كان يشعر بأن هناك شيء آخر سيحدث، في النهاية قد أصدر موافقته لأخته، وسيرحلان قريبًا خلال أيام.

***

هل كانت توهم نفسها؟ ...

لقد استمرت حياتها كما هي، لم يتغير شيء، فقط محاولتها المستميتة للتقرب منه هي التي اختفت، نعم، ما زالت تتعافى مما حدث وتحاول أن تتخطى ذلك الحب المسموم، فحب من طرف واحد هو بالتأكيد مسموم يذهب بك للهاوية، كان يأتي في بالها كل فترة أو عندما يحدث شيء يذكرها به، ولكن سرعان ما كانت تزيح صورته من عقلها، لم يعد تذكره شيئًا ممكنا، ولكن ذلك القلب البالي كيف سترممه مرة أخرى، ذلك الفتات المبعثر كيف ستجمعه من جديد، لم تعد تثق بالحب، أصبحت خاوية لا تريد الثقة أو المحاولة مع شخص آخر، يكفي ما مرت به.

ولكنها كانت ترى بعض التلميحات من شخص آخر، لم يتركها، وكان يحاول التقرب منها، كانت تحاول المراوغة كلما استطاعت وألا تفكر بشيء من هذا القبيل حتى جاء الوقت الذي اعترف لها بما يكنه في قلبه، فقال لها:

– أعلم ما تمرين به، وأنه ليس بالأمر السهل، أن يتم اقتلاع قلبك ورميه في هاوية من الجحيم، كل يوم يذرف الدموع دمًا، كنتِ تحاولين أن تفعلي كل ما بيديكِ وبالنهاية لا يُنظر إليكِ حتى، والآن أعلم أنكِ في مرحلة التعافي من ذلك الحب، وأنكِ لم تَعُدِ تريدين أن تنظري لأحد، ولا تثقي بأي شخص آخر، جميعنا كنا نعلم أنكِ تحبينه إلا هو كان

أحمقًا، لم يُقدر ذلك الحب الذي تكنينه له، جميعنا نريد أن يحبنا شخص ما ولكن ما نريده حقًا هو أن يبادلنا من نحبه ذلك الحب، ولكن قلوبنا ليست بأيدينا، فمن يعلم، قد تحب شخصًا اليوم وفي اليوم التالي يصبح كأنه لم يكن، ولكن اعلمي يا چيسيكا أنني أحبك منذ زمن بعيد، حتى عندما كنت أراكِ مع حمزة كنت أغضب بشدة، ولكن لم يكن بيدي شيء لأفعله، فأصمت لأنه صديقي، وأنا أعلم ما تشعرين به تجاهه، ولكن الآن أنا على يقين أن كل ذلك قد انتهى، أريد منك أن تعطيني فرصة، فرصة واحدة وأعدك أني لن أخذلك، ولن أدعك تندمين أبدًا، أنتِ أكثر من يعلم معنى الحب، فلا تقسي عليَّ، أريد أن أحملك على بساط علاء الدين ونصعد للسماء لا يطولنا شخص آخر، أنتِ أميرتي وملكة قلبي، أحبك حتى أتوارى خلف التراب، حتى ينسى الناس من أكون فتختفي ذكراي.

لمست تلك الكلمات قلبها بحنية بالغة، هي تعلم معنى كل كلمة جيدًا، كانت تدري بمشاعر مايك منذ فترة، ولكن كانت تتجاهله، كما كان يحدث معها بالضبط، اجهشت بالبكاء، كل ذلك يقتلها، ماذا عليها أن تفعل، لا تريد أن تفعل بمايك كما فعل حمزة معها، ولا تريد أن تكون معه شفقة عليه أو ليسد خانة لديها، كانت متحيرة بشدة، ظلَّت تفكر لبعض الوقت، ثم في النهاية اتخذت قرارها ببعض العقلانية، ولكنها ستسلم نفسها، هي تعلم كيف سيعاملها مايك، ولذلك قررت أن تعطيه فرصة، جرحها على وشك أن يلتئم، فقد يكون هو ذلك الشفاء، فردت عليه:

– كنت أعلم بحبك منذ بدايته، فالعاشق تفضحه عيناه، أشكرك على ذلك الحب كل تلك الفترة وأنا لم أنظر إليك حتى، أشكرك أنك قد احتفظت بي في قلبك وقلبي لم يكن معك، أشكرك أنك كنت هنا عندما كنت أخطو بلادًا بعيدة، أشكرك على كل شيء، لا أريد أن أقسو عليك، ولا أريد أن أكون بذلك المظهر السيء أكثر من ذلك، فأنا أعلم ذلك الشعور عندما يتم تجاهلك ممن تحبه، سأعطيك فرصة لتتقرب مني، وسأعطي لنفسي فرصة بأن أعرفك جيدًا، ولكن أعلم أن جرحي لم يلتئم كله، فتجاوز عن ما قد يحدث من هفوات، فكن معي لينًا هينًا، خذ بيدي لأبتعد عن تلك الأمواج واجعلني أخطو جزيرة

قلبك، أنا أحاول جاهدة، وقد اقتربت للغاية، وأعلم أني سأحفظ قلبك ذاك، فلا تسأم مني واخطُ معي بهوادة.

***

- سأقابل حمزة غدًا.

- هل تمزحين معي؟..

كيف ذلك؟..

- لقد تكلمت مع خديجة منذ فترة ليست ببعيدة، وشرحت لي الحالة التي يمر بها حمزة، وأن من سُبل علاجه أن يأتي هنا في مصر وأقابله.

أشعر بالتوتر البالغ، قلبي سيخرج من جحره لا يتوقف عن النبض بشدة، لا أستطيع أن أجلس هادئة أبدًا، لقد اتفقت مع خديجة على المكان الذي سنتقابل فيه، ولكن لا أعلم ماذا أرتدي، وكيف سيكون اللقاء!..

أشعر أن عقلي سيجن يا فتاة.

- اهدأي قليلًا، فأنا لا أستوعب ما يحدث، ما كل هذا، إن الأمر يتعب الأعصاب، ولكن هذا حلمك يا أيسل، تشبثي بأي أمل، أمامك فرصة أخرى تلوح في الأفق اغتنميها هذه المرة.

أنهت مكالمتها ثم أخذت تطوف في غرفتها ذهابًا وإيابًا كالذي يطوف في السعي، ثم وقفت أمام خزانة ملابسها لتختار ما الذي سترتديه، كانت في حيرة من أمرها تريد أن ترتدي شيئًا مميزًا، فوقعت عيناها على فستان تحبه للغاية، وتحافظ عليه لتلك المناسبات المهمة، فقررت أن ترتديه غدًا، وهكذا أصبح كل شيء جاهز عدا قلبها، لا تدري ما الذي قد يحدث له عند رؤيته.

٤

عاد حمزة إلى مصر، فور أن خطت قدمه تلك الأرض انقبض قلبه، يشعر بالتيه، وهناك الكثير من المشاعر التي تجتاح قلبه، يخشى مما قد يحدث له، فهو لا يتحمل أي صدمة أخرى، وفي نفس الوقت لم يتعافَ من تلك التي تدمره.

ذهب إلى بيت جده ليرتاح، وفي طريقه كان يمر على تلك الأماكن التي التقى بها أيسل، ولكنه لا يتذكر بالطبع، ولكن كان قلبه ينتفض وينبض بشدة، وكان عقله كما لو أنه يحاول تذكر شيء ما، أشباح تظهر أمامه، حالة أشبه بالجنون، ما أغرب العقل البشري وكيف يعمل!!

نام ليلته وأشباح تلك الذكريات تطارده، ليلة مليئة بالكوابيس دون راحة، أزاحت أشعة الشمس الذهبية غطاء الليل الأسود لتنذر عن قدوم يوم جديد بمستقبل آخر لا تدري كيف سيمر ذلك اليوم.

استيقظ بأعين مثقلة، فلم يزره النوم إلا قليلًا، لا يدري ما الذي سيحدث اليوم، فهو مُسلِّم أمره بين يدي أخته، فهي من سيحركه، فتلك فكرتها منذ البداية.

بعد يوم هادئ في بيت جده دقت ساعة الصفر وأخبرته أخته بأن يغير ملابسه لكي يخرجوا قليلًا، ذهبوا إلى شاطئ يعرفه حمزة جيدًا، فقد جاء إلى هنا من قبل في زيارته الأولى لمصر، جلس هو وأخته عند ذلك المكان أيضًا الذي جلس عنده حينها، كانت الأجواء هادئة للغاية لا شيء يستحق ذكره، ولكنه لم يشعر أن ذلك يبشر بالخير، فحتى الآن لم يحدث أي شيء غير عادي مما أتى من أجله، ولكن قد يكون ذلك هو الهدوء الذي يسبق العاصفة.

بدأ الليل يسدل ستائره، والشمس ترحل رويدًا رويدًا في مشهد سنيمائي حيث تختلط

أشعة الشمس الملونة عند الغروب مع البحر، فتعطي مشهدًا يسحر الأعين من جماله، وبينما هو يتأمل ذلك المشهد الخلاب إذا بقلبه يبدأ بالدق كالناقوس، يتذكر ذلك الشعور جيدًا، الزمن يعيد نفسه، لقد حدث هذا من قبل عندما جاء هنا ولم يكن يفهم ما المشكلة، ولكنه لم يدرك بأن أيسل كانت بجواره في هذا المكان أيضًا، شعر بأن هناك شيء خفي يُدير وجهه؛ لينظر إلى ما أفقده عقله وقتل قلبه، كانت أشعة الغروب تسقط على ذلك اللون السماوي الذي يشبه السماء الصافية، فيعطيه جمالًا فوق الجمال، وذلك القمر الذي يتزين ذلك الفستان كأنه قطعة من السماء، بل لوحة أخرى من الموناليزا، بل ملاك قد هبط من أعالي السماء، بل أجمل وأعجب.

كان ينظر إليها في حب وشوق، هو يعرف ذلك المشهد حق المعرفة، فقد رآه في منامه، أعينه تذرف الدموع دون أن يشعر، المشاهد المسوحة تتوالى بعقله، الآن يتذكر ويدرك كل شيء، الآن تذكر أنه قد وقع في الحب، وتلك الأميرة التي أمامه من سرقت قلبه، يتذكر كيف احترق قلبه وتحول إلى رماد عن بكرة أبيه، وكيف كان يحاول نسيان كل ذلك، الآن اكتملت الصورة وعاد حمزة.

اقترب منها ونظر إلى أخته ثم أخبرها:-

- هذا تأويل رؤياي من قبل يا خديجة، هي من رأيتها في منامي بتلك الهيئة، لم يتغير شيء، كانت من أحكي النجوم عنها كل ليلة، هي التي سرقت قلبي وحرقت حصني، هي من أطوف في فلك أعينها القرمزية، هي تلك الغجرية التي سحرتني، هي من نبض قلبي لها، آه لو تعلم ما فعلت بي وبقلبي.

كانت أيسل تسمع كلماته وتبتسم، كانت تشعر بالفرح أن تلك الكلمات لها هي، أخيرًا ستكتمل روايتها بأحرف من ذهب يخطها العشق، بكت فرحًا بوقوفه أمامها وأنه قد قطع بقاع الأرض من أجلها من أجل أن يعود لها، وبكت أيضًا لما فعلته من قبل، وكيف أبعدته عنها كل تلك المدة.

ذاب العصفورين في العشق أخيرًا، وتلاقت الأعين دون وسيط، أعين يملؤها العشق، أعين معاتبة، أعين ملأها الحزن، أعين أهلكها الاشتياق لرؤية من تحب، أعين ترتوي بالتأمل في من استحوذ عليها، كانت الأحاديث تدور دون كلام، وإذا تحدثت الأعين سكت اللسان، فهي تملك من الفصاحة ما لم يبلغه كلام.

قام حمزة بمعاتبة أيسل بنظراته وقابلته بالاعتذار في خجل، لم يعد يهم كل ذلك الآن، فقد أصبحا سويًّا، ولن يفرق بينهما أحد، كانت خديجة على حق، فقد استرد حمزة قلبه ومعه من سرقه، ولكن لن يحاسبه بل سيحتفظ به في قلبه هذا.

تم الاتفاق على كل شيء بشأن زواج حمزة وأيسل، فقد وجد حمزة عملًا في مصر وسيستقر هنا لمدة، ثم يحدد هل يرحل مجددًا أم لا، كان كل شيء يسير على ما يرام، وفي يوم قامت أيسل بإعطاء حمزة ورقة، تلك التي قد كتبها وهي قد وجدتها، نظر لها في دهشة وقال:-

- كيف وجدتِ تلك الورقة؟

- اعتد الذهاب لذلك المكان، فقد كان يذكرني بك، وفي أحد المرات كنت أداعب الرمال تحت قدمي وبدأت في الحفر دون هدف، فقط كنت أعبث بالرمال وأنا شاردة، فإذا بي أجد تلك الورقة، فتحتها وقرأتها وعلمت أنك من كتبتها.

- لقد وضعت فيها كل مشاعري وما يعتلي قلبي، كنت حزينًا للغاية، وضعتها هناك لعلك تعثرين عليها، لا أدري كيف فكرت في ذلك وكيف سار القدر وحدث ذلك فعلًا.

- هناك أشياء عديدة تحدث ولا نفهمها، منها خيوط القدر التي تجمعنا ثم تفرقنا، والأهم من ذلك أننا سويًّا الآن، لن يفرقنا شيء سوى الموت.

نظر لها حمزة مبتسمًا، فكل ما يحدث في قصتهما تلك وكأنه إحدى الروايات أو الأفلام، وكان يتمنى بأن لا يكون هناك مفاجآت أخرى فمن يدري ما يخبيه القدر لنا.

بعد صمت دام قليلًا من الدقائق تنهدت أيسل، ثم سألت حمزة:-

- هل من الممكن أن تتوقف عن حبك لي وتنساني للأبد؟

- لماذا تقولي شيئًا كهذا؟!

- ما حدث قد نغص قلبي ودائمًا ما أشعر بالقلق، أخاف أن أفقدك مرة أخرى، لن أتحمل شيئًا كهذا.

- لا تقلقي يا نجمتي، فبالرغم مما حدث ها أنا ذا جالس بجوارك أتأمل أعينك، لم يفارق حبك قلبي، ولن ينتهي أبدًا.

سأظل أحبك حتى يشيب ذلك الشعر وأبلغ من العمر أرذله، حتى تتبخر ذكرياتي فلا أتذكر سواكِ، حتى تسقط السماء على الأرض وينقلب العالم رأسًا على عقب، حتى تنطفئ النجوم فيظل نورك لا يخفت لحظة واحدة، حتى تملأ التجاعيد وجهك، وتظلين أجمل من الموناليزا في عيني، حتى آخر نفس لي في هذه الحياة، حتى آخر نبضة لقلبي، حتى تنغلق أعيني فلا ترى النور مرة أخرى، فإذا رحلت إلى العالم الآخر لن تفارق صورتك عقلي، سأظل أراقبك من الأعلى حتى تجاوريني هناك، فأنتِ الحور العين وجنتي في الدنيا والآخرة.

***

تم عقد القران قبل القيام بالحفل بعدة أيام، تجمدت دموع الحزن وحفظت السعادة بداخل قطرات الندى التي انهمرت منهما فور تلاحمهما، ها قد سار كل منهما كنفًا وسندًا للآخر، ها قد انقضت الأيام العجاف، فالحزن لم يكن سرمدي، هذان العاشقان قد نالا جائزة صبرهما أخيرًا، رحل الحزن تحت أضواء النجوم، وجاءت السعادة لتنشر عبقها بالمكان، فتتراقص القلوب وتتغازل الأعين في صمت يحمل من البلاغة ما عجزت الكلمات عن تعبيره.

ها قد وجد حمزة موطنه الغالي بعد ترحالٍ دام عقودًا أو قرونًا، فلا يعلم كم من العمر ذاق مشقة الغربة، ذاب قلبه حبًّا، وأزهرت ثنايا قلبه، خرج من كبد الوحدة إلى شمس الأُنس.

(أدلعتِ الحرائق بقلبي، فأصبح هشيمًا تذروه الرياح، ثم أقمتِ منزلك بين ثناياه، فطاب المقيم وأزهرت الديار).

٥

قاما باختيار فستان الحفل، كانت أيسل تطل فيه كالحور العين، انطوى الجمال بداخل أعينها واكتسبت من آيات الله ما تأسر به القلوب وتسحر العيون، فلا تملك سوى أن تقع بحبها، كانت في حِلية الأميرات تدلل بجمالها، كانت والدتها تقرأ من الآيات دائمًا ليحفظها الله من شرور الأعين.

تجهزت بحليها وحان الوقت للذهاب إلى المكان الذي سيقام فيه الحفل، جاء حمزة ليأخذ نجمته التي كان يكتب لها ويحادثها كل ليلة لسنين طويلة، ذهبا لكي يكملا مراسم الزفاف، كانا في غاية السعادة والبهجة تسبح في المكان تظلل الجميع.

وبينما هم في الطريق، إذا بصوت إنذار يأتي من سيارة أخرى، فيصبح آخر شيء سمعوه هو ارتطام السيارة بأخرى في حادث مروع عند تقاطع أحد الشوارع، نقل حمزة و أيسل وخديجة التي لم تتركهم ولازمتهم طول الوقت إلى أقرب مشفى من ذلك المكان، حضر الأهل والأصدقاء، الجميع في حالة خوف وقلق وارتباك، ذلك الفستان الأبيض الذي جعلها مثل الملائكة ها هو قد شابه الإحمرار من ما قد انتشر عليه من الدماء، ثلاثتهم في وضع صعب والأطباء يفعلون ما بوسعهم، الجميع في حالة ترقب مما هو آتٍ، يدعون الله ويصلون بأن يقوموا سالمين.

خرج عليهم الطبيب بالخبر العاجل، فأخبرهم أن كلا من حمزة وخديجة حالتهم ليست خطرة وسيتحسنون سريعا بإذن الله، أما بالنسبة لأيسل فهي التي حالتها ليست مستقرة بعد، فالارتطام كان عندها هي، فكانت الأضرار الأكثر من نصيبها.

انهارت والدة أيسل من البكاء حزنًا على صغيرتها الغالية، فقد كان يجب أن يكون هذا هو أحد أيام حياتها السعيدة ولكنه تحول إلى جحيم، حاولت والدة حمزة تهدئتها

ومواساتها، فهي الأخرى لا تقل معاناتها عنها، فولدها وابنتها كلاهما بالداخل لا يملكون سوى رحمة الله ولطفه، يخيم الحزن على المكان والدموع لا تتوقف.

حل الليل والتعب تملك الجميع، يجب عليهم أن يرحلوا، ولكن أبت والدة حمزة ووالدة أيسل أن يبرحوا مكانهم وأصروا أن يبقوا بجوار أبنائهم ليلتهم تلك، فلن يهدأ لهن بال حتى يفيقوا جميعًا من تلك النكسة التي حلت بهم.

***

كان آخر ما سمعه حمزة هو صوت أيسل وهي تناديه ممتزجًا بصوت الاصطدام، كان يحاول الرجوع لوعيه، عقله يأبى السكون، يرى المشهد أمامه فيفز فزعًا من هول ما رأى مناديًا بإسم أيسل، فتح عينيه ليجد والدته تهرع إليه وأعينها تفيض من الدمع منادية باسمه، هناك العديد من الأسلاك المرتبطة به، ينظر حوله ولا يدرك أين هو، كان يبحث عن أيسل، ينظر حوله كالمجنون وينادي باسمها، همَّ بالنهوض، ولكن جسده قد أبى، فما زال يحتاج لبعض الراحة، هناك العديد من الإصابات التي لحقت به، والتي تعجزه عن الحركة ولكن ليس لزمن طويل، أقبلت والدته تحتضنه والدموع لا تتوقف من السيل:-

- أخيرًا، حمدًا لله على سلامتك يا ولدي، لقد كاد أن ينخلع قلبي خوفًا من فقدانك.

- أنا بخير يا أمي، ولكن أين أنا وأين أيسل!؟...

- أنت في المشفى وأيسل هي الأخرى، ومعكم خديجة كذلك.

- بالفعل، وخديجة.. أين هي؟ ما الذي حدث، لا أتذكر جيدًا.

- لقد وقع بكم حادث وأنتم في الطريق إلينا، وكل من خديجة وأيسل قد أصابهم من المكروه ما كتبه الله لهن.

ولكن لقد أفاقت خديجة بفضل الله فقد كانت أقل تضررًا منك أنت وأيسل، ولكنها نائمة في الوقت الحالي ترتاح قليلًا.

– الحمد لله على سلامتها، وبالنسبة لأيسل كيف هي؟..

نظرت والدة حمزة له بحسرة وقلق لا تدري ما يجب عليها أن تقول، كانت تحاول أن تخفي قلقها لكي لا يقلق في حالته تلك، ولكنه كان يعلم أعينها ونبرتها حق المعرفة، فحاولت مدارية حزنها وقلقها وقالت:-

– ستتحسن سريعًا بإذن الله.

– ماذا قال الطبيب!..

– ما زال يتابع حالتها عن كثب، لا يعلم ما الذي قد يحدث.

– أين هي.. أريد رؤيتها.

– ابقى هنا يا حمزة، ما زلت تشعر بالوهن وجسدك مرهق.

– لن يهدأ لي بال حتى أراها يا أمي، لماذا يحدث كل ذلك؟ لماذا يقف القدر في طريقنا؟ ما الذي فعلته لكي أستحق كل ذلك.

– اهدأ يا ولدي، وليكن لديك إيمان بالله، فهو لن يأتي إلا بكل الخير.

– تعبت يا أمي، في كل مرة أشعر بأني قد بلغت حلمي أجد أنه يتحول إلى كابوس.

– أعلم كيف تشعر، فقد كنت سأفقدك في مرتين، كاد قلبي أن ينخلع من مكانه يا فلذة كبدي، ولكن إيماننا بالله هو ما يجعلنا نتحمل كل ذلك ويبدلنا خيرًا.

– ونعم بالله يا أمي.

***

في اليوم التالي وبعد أن حل الليل بردائه المظلم وسكن الجميع في سبات استطاع حمزة أن يقوم من مكانه، وذهب بخطوات بطيئة يتكئ فيها على عكازه الذي أصبح صديقه

من جديد؛ ليطلع على أيسل، وفور أن وصل ورأى تلك الحالة التي هي عليها علم أن الأمر جلل، الجراح تنتشر في العديد من الأماكن وكسور في الذراع والقدم، يلازمها ذلك المحلول ليغذيها، وتلك الأسلاك للاطمئنان على حالتها.

خارت قواه، لم يعد يقدر على الوقوف، خر على الأرض هامدًا وحاول أن يرجع بظهره ليستند على الحائط وجلس القرفصاء، أصبح العالم من حوله ظلام حالك، كيف لا وقد انخفض نور نجمته، وذبلت وردته، لا يرى أمامه سوى ابتسامتها التي كانت تضيء له حياته، صرخ بداخله صرخة تهز كيانه ويهتز لها العالم بأسره، مكلوم ذاق من الجراح أقساها، ضاق صدره وشعر بالاختناق، كان يهمس بصوت خافت:

لا.. لا... لا ليس هذه المرة أيضًا، لماذا يحدث كل ذلك، لماذا يقف القدر أمامنا؟ هل من الصعب أن يكون المرء مع من يحب؟ هل حرام على ذلك القلب أن يشعر بالأمان؟ هل سينتهي كل شيء هنا!؟ لا يمكن أن يحدث هذا، لا يمكن أن ترحل بتلك السهولة، كيف لي أن أحيا بدون روحي! بدون ذلك الوطن الذي يحتويني! بدون تلك الابتسامة التي تحييني!!

ظل صوته يرتفع رويدًا رويدًا وهو يقول: لا.. لا. لا... لا، وختمها عندما صاح باسم أيسل صيحة جعلت النائمين يفزعوا لتلك الصرخة، فهرعوا إليه لينظروا ما الذي حدث، فوجدوه على الأرض يبكي بحرقة ويتمتم قهرًا.

جاءت والدته لتضمه إليها في حنان بالغ، وأخذت تمسح على رأسه تحاول تهدئته، فسكن بين ذراعيها، كيف لا وهي الدار الآمن وملاذه الأول والأخير، من هنا أتى وإلى هنا يعود، حاولوا أن يسندوه لكي يعود إلى سريره، زمَّلوه وأخذ بعض المهدئات، فحالته لا تسمح بأن ينفعل بذلك الشكل، ثم غط في نوم عميق وخده مبتل من دموعه.

بعد مرور أيام قليلة أصبحت خديجة في حالة أفضل وأصبحت تتحرك بحرية، كانت ريم تأتي هي وأمجد بين وقت وآخر؛ لتطمئن على أيسل، وأمجد ليطمئن على حمزة، فمهما

حدث فهما يعتبران بعضهما أصدقاء، وما فات قد مات، وقد ساعد أمجد حمزة في العديد من الأشياء أثناء تجهيز حفل عرسه وكان بجواره دائمًا.

كانت ليالي حمزة مليئة بالكوابيس، ويستيقظ من نومه فزعًا على مشهد أيسل في وقت الحادث وهي غارقة في الدماء، يذهب إلى سريرها باستمرار، يظل يدعو لها ويرجو الله أن تقوم بالسلامة في أسرع وقت، يظل ينظر إليها ويتأملها، ما زالت جميلة كما هي، ما زالت تلك النجمة التي عهدها منذ زمن بعيد، منذ أن نظر للسماء ووقعت عينه عليها، ما زالت ساحرة خلابة، ليت الآلام تزول ويعود الحبيب فما لذلك القلب احتمال تلك الغصة، فيا ويل القلب من مكروه أصاب الحبيب كأن سيفًا قد غرز في صمامه.

مرت أيام كثيرة، حمزة بدأ بالتحسن هو الآخر، ولكن المشكلة كانت بأيسل، لم يظهر عليها أي علامة للشفاء سريعًا، كان الجميع يدعو الله بأن تقوم سالمة، الأطباء يفعلون كل ما بوسعهم، الأمر متروك بيد الخالق وحده.

وفي يوم من الأيام شعر حمزة باليأس لماذا لا تتحسن، هل ستبقى هكذا طيلة حياتها، إن البداية لم تبدأ بعد، لا يعلم ماذا حدث له ولكن لقد رفع صوته قائلًا:(لن تموت نجمتي.. لن تموتي). جلس بجوارها كعادته ووضع يدها بين كفيه يمسكها بيديه الاثنين، بالرغم من شحوب وجهها، ولكنها ظلت محتفظة بلمعانها وبريقها، قبَّل جبينها، كان يائسًا بعض الشيء، ولكنه جمع إيمانه كله، وظل يدعو الله، فليس بيده شيء سوى ذلك، كان يثق أن بين تلك الظلمة الحالكة ستضاء شمعة تنير الطريق، ستظهر نجمته بضوئها المميز الذي لا يضاهيه جمال، ظل يدعو كثيرًا ويناجي الله بأسمائه كلها وهو مغمضًا عينيه، والدموع تنهمر دون سكون، وبينما هو منهمك في ذلك تسارعت دقات قلبه وأخذ ينبض بشدة وكأنه يعود للحياة، وإذا بيد ناعمة تربت على يديه، وصوت يعلمه جيدًا يقول له:-

- افتقدتك كثيرًا، أحبك يا سمائي.

تمت بحمد الله